نهج البردة

لأمير الشعراء

أحمد شوقى

وعليه

وضح النهج

لشيخ الأزهر الإمام الأكبر

الشيخ سليم البشرى

قدم له أمير الفصحاء : محمد بك المويلحى

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة
ت: ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب

لحضرة محمد بك المويلحي

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على سيد المرسلين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعد ... فإن الشعر ضرب من ضروب القول يتسع لكل غرض ، ويتناول كل مطلب . والسابق فيه من يذهب به فنوناً ، ويتشعب له القول فيه شعوباً . وقد سبق لفحول الشعراء المتقدمين أنهم لم يتركوا سبيلاً من المقاصد إلا سلكوه ، ولا باباً من أبواب المعانى إلا طرقوه . فبينا ترى الشاعر منهم يتنزل فى شعره ، فيصنع قصيدته فى وصف الفرس الأعوجىّ ، والبعير المهرىّ ، والحمار الأخدرىّ ، والقطا الكُدرىّ ، إذا هو يعلو صُعُداً فى تقرير الحقيقة وتمجيد الفضيلة وتدوين الحكمة وضرب المثل .

ولا يزال ما قالوه إلى اليوم جديداً على الدهر . ولقد وهم من قال عنهم إنهم قصّروا أشعارهم على حدّ من القول محدود ، وداروا به فى مجال من المعنى محصور ، وإنهم قصّروا أن يحيطوا بمتّسع الأغراض فى مظاهر الحضارة ، وعجزوا عن الإلمام بما يتدرج فيه نظام البشر من سموّ المدارك وعلوّ المقاصد ، فأجهدوا خيالهم واستنفدوا أقوالهم فى أوصاف الإبل

ونعوت الخيل ، وما لنا اليوم وللقول فى تلك الإبل ، وللكلام عن هذه الخيل وأمامنا عجائب البخار وغرائب الكهرباء ! ...

ولكن لم يكن ذلك منهم عن عجز ، فقد استرعبوا القول ، وأجادوا الوصف ، حتى أنه ليخيل لنا من أشعارهم أنهم تجاوزوا أزمانهم إلى أزماننا ، وتناولوا فى طريق مبالغتهم وإغراقهم ما يدور اليوم بين أيدينا ويُصنع أمام أعيننا . ومن ذا الذى توصل منا إلى الآن أن يصف سرعة القطار بمثل ما وصف به متنبى العرب سَبْقَ الخيل فى قوله :

وأجَلَّ عِلْمِ البرقِ فيها أنهـــا
مرّت بجانحتيه وهى ظنُنُونُ

أو قول أعمى المعرّة :

ولما لم يُسابقهنّ شئٌ   من الحيوانِ سابقْنَ الظِّلالا

ولا يقال إن باللغة ضيقاً لا يتسع لمجال القول فى مستحدثات هذه الأزمان ، فإن اللغة العربية وسعت كل شئ فى كل زمن ، وهذه كتبها المخفورة تشهد لمن يطلع عليها بسعة المادة دون كل لغة ، وإنما إهمال النظر فيها هو الذى دعا إلى هذا الوهم ، وحدا إلى ذلك الزعم .

وإذا كان الشاعر منهم اشتغل بوصف كلب الصيد فى شعره ، فقال مثلاً :

أنعتُ كلباً أهلُه فى ودّه   قد سعدَتْ جدودُهم بجدّهِ
فكلُّ خيرٍ عندهم من عندهِ   يظلّ مولاهُ له كعبدِهِ
يبيتُ أدنى صاحبٍ من مهدِه   وإن غـــدا جلّله ببُردِهِ
ذو غُـــرّةٍ مُحجّلٌ بزندِهِ   تلذُّ منه العينَ حُسنُ قدِّه
يا حُسنَ شدقَيْه وطول خدِّه   تلقى الظِّباءُ عنتاً من طرْدِهِ
يشربُ كأساً شدُّها فى شدِّه   يا لكَ من كلبٍ نسيجٍ وحدِه

إذا هو يقول فى مناجاته لربه ما لم يقله أعظم مشرّع من أطباء الافرنج ممن يتناولون الشعر اليوم :

يا من يرى مدّ البعوض جناحه   فى ظُلمة الليل البهيم الأليلِ
ويرى عروق نياطِها فى نحرِها   والمخ فى تلك العظام النُّحّلِ
اغفرْ لعبدٍ تاب من فرَطاتِه   ما كان منه فى الزّمانِ الأوّلِ

وإذا صرّف غيرُه شعره إلى وصف الثعبان مثلا فقال :

أهوَى إلى باب جُحرٍ فى مُقدّمه   مثلُ العسيب ترى فى رأسه نزَعا
اللونُ أربدُ والأنيابُ شابكة   عُصْلٌ ترى السم يجرى بينها قِطعا
أصمُّ ما تمّ من خضراءَ أيبسَها   أو تمّ من حجرٍ أوهاهُ فانصدَعا

فإن سواه من علماء الكلام والتوحيد يقول ما لم يقل مثله «فلاماريون» حكيم الفرنساويين اليوم وشاعرهم الفلكىّ فى سر الوجود وخفاء ماهية النفس :

واللهِ لا موسى ولا عيسى المسيح ولا محمّــدْ
علموا ولا جبريل وهْو إلى محل العرش يصعدْ
كلاّ ولا النفسُ البسيطةُ لا ولا العقــلُ المجرّدْ
مِنْ كنهِ ذاتك غير أنك واحدُ الذات سرمدْ
وجدوا إضافاتٍ وسلْباً والحقيقةُ ليس توجدْ
ورأوا وجوداً واجباً   يفنى الزمان وليس ينفدْ
فلتخسأ الحكماءُ عن   حرمٍ له الأفلاكُ تسجُدْ
مَنْ أنت يا رسطوُ ومنْ   أفلاط قبلك يا مُبلّدْ
ومن ابنُ سينا حين قرّ   رَ ما هُديت له وشيّدْ
هل أنتمُ إلا الفرَا   شُ رأى الشهابَ وقد توقّدْ

فـــدنا فأحرق نفسه   ولو اهتدى رشدا لأبعدْ

وقوله :

قد حار فى النفس جميع الورى   والفكرُ فيها قد غدا ضائعا
وبرهنَ الكلُّ على ما ادَّعَوا   وليس برهانٌ لهم قاطعا
مَن جهلَ الصنعةَ عجزاً فما   أجدَرَه أن يجهلَ الصانعا

فالشاعر الجيد من أهل هذا العصر مَن لم يهمل الأخذ بطريقة المتقدمين فى شعره ، ولن يتمَّ له الإحسان فى قول الشعر إلا باحتذاء حسناتهم والعمل على شاكلتهم .

ولقد وُفِّق بحمد الله شاعرنا هذا ، أحمد شوقى ، إلى سلوك هذا السبيل فى شعره ، فلم يقتصر على قرض القريض فى ما تجرى عليه الأحوال فى عصرنا الحاضر ، بل سار على نهج المتقدمين ، وانتحى مناحيَهم فى فنون الشعر ، واقتدى بهم فى هذه القصـــيدة بما يسمونه بالبديعيات فى مدح رسول الله ﷺ . فبلغ أوج الإجادة ، ووصل إلى أعلى طبقات القريض ، وهى قول الحق ، وتقرير الصدق . فتمّ له بذلك الإحسانُ المعْنِىُّ فى قول الشاعر :

وإنَّ أحسنَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ   بيتٌ يقال إذا أنشدْتَهُ صدقا

والشعر إذا كان على هذا الضرب تشاغل به العلماء ، وتنافس فيه الحكماء ، وأنزله أهلُ التقى والدين وأصحابُ الورع واليقين منزلة من الإجلال والإعظام فلا بدع إذنْ أن انبرى لشرح هذه القصيدة مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وهو من علت سموّ مكانته ، وعلوّ درجته أدباً وعلما ، ووقاراً وحلما ، وفهماً وإفادة ، وتقى وعبادة ، وورعاً وزهادة ، وأولئك لهم الحسنى وزيادة .

وإذا كان الشعراء عرفوا مواضع السجود فى الشعر عند إنشاد قصائدهم بمجلس الخليفة فى محضر العلماء حين وصل أحدُهُم ، عدىُّ بن الرقاع ، فى إنشاد قصيدته إلى قوله يصف ولدَ الظبية وشبوبَ قرنه :

تزجى أغنَّ كأنَّ إبرةَ روقِهِ   قلمٌ أصابَ من الدَّواةِ مدادَها

فخرُّوا كلهم ساجدين استحساناً للبيت ، فلما أخذهم مَنْ حضر من العلماء ، قالوا لهم : « لا تؤاخذونا ، إنا نعرف مواضع السجود فى الشعر كما تعرفون مواضع السجود فى القرآن » . فإن لولانا الشيخ شيخ العلماء أن يقول اليوم : « ونحن أيضاً نعرف مواضع الصدق فى الشعر » فنحفل به ، ونتقبله بأحسن قبول ، ولا يكون عندنا أبداً من مكروهه الوارد ذكره فى الآيات البينات ، بل يكون من مستثناه فيها ، فإن المقصود من الآية فى الشعراء بقوله تعالى : ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ ﴾ هم أهلُ الكذب ، وفضولِ القولِ ، وأربابُ الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسيبِ بالحُرَم ، والابتهار ، ومدح من لا يستحق . ولا يستحسن ذلك منهم ، ولا يطرب على قولهم إلا الغاوون السفهاء .

وقيل : هم الشعراء الذين كانوا يقولون « نحن نقول مثل قول محمد » ، وكانوا يهجونه ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون لهم أشعارهم وأهاجيهم مثل عبد الله بن الزبعرى وهُبَيْرَة وأبى عزة الجمحى ، فهم أهل فتنة وباطل . ومَن يهم منهم فى مجاوزة حد القصد حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحّهم على حاتم ، وأن يَبْهتوا البرىء ، ويفسقوا التقىّ .

ثم قال تعالى بعد ذلك : « إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ ما ظُلِمُوا » . فاستثنى الشعراء المؤمنين الذين إذا قالوا شعراً قالوه فى توحيد الله والثناء عليه

والحكمة ، والموعظة ، والزهد ، والآداب الحسنة ، ومدح رسول الله ﷺ وأصحابه وصلحاء الأمة ، وما لا بأس به من المعانى التى لا يتلطخون فيها بذنب ، ولا يتلبسون فيها بوزر ولا منقصة ، وكان مجاوزهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم .

قال تعالى : ﴿ لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ ﴾ ، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو جوابٌ لقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ .

وعن عمرو بن عبيد أن شريفاً من العلويه قال له « إن صدرى ليجيشُ بالشعر » . فقال : « فما يمنعك منه فيما لا بأس به ؟ » .

وجملة القول أن الشعر باب من أبواب الكلام ، فحسَنُه كحسَن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وكان عليه الصلاة والسلام يقول لحسان وهو ينافر عنه : « قلْ وروح القدس معك » .

والقول كذلك فى تفسير الآية : ﴿ وما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِى لَهُ إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِين ﴾ أنه ما علّمه بتعليم القرآن الشعر ، على معنى أن القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر فى شىء ، وأين هو عن الشعر ؟ والشعر إنما هو كلام موزون مُقفّى يدل على معنى ، فأين الوزن ؟ وأين التقفية ؟ وأين المعانى التى ينتحيها الشعراء من معانيه ؟ وأين نُظم كلامهم من نظمه وأساليبه ؟ فإذنْ لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت .

﴿ وما ينبغِى له ﴾ وما يصح له ، ولا يتطلب لو طلبه ، أى أنه جعله عليه الصلاة والسلام بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ، ولم يتسهّل ،

كما أنه جعله أميًا لا يتهدّى للخط ولا يحسنه ، لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض .

وعن الخليل : « كان الشعر أحبّ إلى رسول الله من كثير من الكلام ، ولكن كان لا يتأتى له » .

وإن قصيدة تُصنع فى مدح الرسول ، وتوضع تذكاراً لحج المليك ،(١) ويكون شيخ الإسلام شارحها ، وشاعر الأمير قائلها :

من اللائى أمدّهنّ يمنُ طبعٍ   وهذّبهنّ فكرٌ وانتقاد

لهى جديرة بأن تنحنى لها الرؤوس إعظاماً وإكبارا ، وتُحنى عليها أحناءُ الضلوع ضنًّا بها وإيثارا ، وتستضىء بنورها البصائر ، وتُعقد على نفاستها الخناصر ، وتشغف بها القلوب فتضمها فى الشغاف ، وتنطوى الصدور على حفظها طىّ الغلاف ، ويتلوها العلماء والأدباء بترنح الأوصال وهزة الأعطاف ، ويتهادونها بينهم أبدعَ ما فى باب الإتحاف والألطاف .

والله يتقبلها من قائلها قبولاً حسنا ، وينفع المسلمين ببركة شارحها نفعاً جما ، وهو ولينا ونعم المولى ونعم النصير ؟

محمد المويلحى
القاهرة ـ ١٩٠٩ م

---

(١) كان شوقى قد وضع « نهج البردة » تذكاراً لحج الخديو عباس حلمى وصدَّرها له : « للمليك المعظم مولانا الحاج عباس حلمى الثانى » .

« مولاى » رأى الله لهذا العبد الخاضع شاعر بيتك الكريم أن يحتفى بنور المتلثم الفرد المذكور له (البوصيرى) صاحب القصيدة الشهيرة (بالبردة) فى مدح خير الأنام عليه الصلاة والسلام . فنظمت هذه الكلمة ، التى أسأل الله وأرجو من رسوله قبولها ، وجعلتها يامولاى لحجتك المبرورة (تذكارها ـ ١٣٢٧) كما تناقل الناس أخبارها . وقد تفضل مولانا الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر « الشيخ سليم البشرى » فتكفل بشرحها للناس . فدخلت البركة على أبياتها من كل مكان وحسُن قبولها من المليك نهاية الإبداع والإحسان » .

عبدكم شوقى

نهج البردة

ريمٌ على القاعِ بيْنَ البانِ والعَلَمِ • أحلَّ سفْكَ دمي في الأشهُرِ الحُرُمِ (١)

---

(١) الريم بالهمزة ويخفف بقلب الهمزة ياء . الظبى الخالص البياض ، والجمع أرآم ، وفى لسان العرب : «وقلبوا فقالوا آرام» اهـ . فهو كبئر وآبار قلبوا فقالوا آرام على وزان أعفال ، ثم سهلت الهمزة الثانية فقلبت ألفاً جرياً على القاعدة من أنه إذا وقعت همزة ساكنة إثر همزة متحركة قلبت من جنس حركتها — القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى لا حزونة فيها . البان : جمع بانة ضرب من الشجر — العلم : الجبل — الأشهر الحرم . أربعة ، ثلاثة متتابعة وهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد هو رجب .

وكانت العرب لا تستحل فيها القتال ، فإذا هى أوفت بهم أغمدوا سيوفهم ونهضوا إلى أسواقهم فتعاملوا فيها ، وتناشدوا الشعر ، ومشى الموتور إلى قرنه مسالماً كأن لم يكن بينهما بالأمس دم ، ولم يطالب أحدهما صاحبه بوتر ، وكذلك كان حكمها فى الإسلام ، ثم نسخ ، ومضى فيها حِلُّ القتال . وقال عطاء بعدم النسخ وحرمة القتال فيها ، وهو ضعيف .

المعنى — إن المحبوبة السانحة فى ذلك الموضع كأنها الظبى فى حسنه ورشاقته ، قد قتلته صبابة بها وولهاً عليها ، وأسرفت عليه حتى أنها استحلت دمه فى الشهور التى تحقن فيها الدماء ويحرم فيها القتال ، حتى يهنأ الموتور والواتر ، ويمشى فيها السلم بين المثؤور والثائر .

وفى الشطر الثانى طباق بين قوله « أحل » وقوله « الحرم » .

ولا يذهب عن القارئ ما فى البيت من براعة الاستهلال .

رَمَى القَضَاءُ بِعَيْنَيْ جُؤْذَرٍ أَسَدًا ٭ يَا سَاكِنَ القَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الأَجَمِ (٢)
لَمَّا رَنَا حَدَّثَتْنِي النَّفْسُ قَائِلَةً ٭ يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ المُصِيبِ رُمِي (٣)

---

(٢) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية — الأجم: جمع أجمة الشجر الكثير الملتف وهو مسكن الأسد.

يريد بالجؤذر: تلك المحبوبة التي شبهها في البيت السابق «بالريم» تشبيهاً لها بالجؤذر في جمال عينيه واتساعهما. ويريد بالأسد نفسه لما له من شجاعته وإقدامه.

المعنى — إن المحبوبة رمته من عينيها النجلاوين بمثل ما يُرمى عن القوس من السهام، وقد وصل تلك الرمية «بالقضاء» تقريراً للعقيدة الصحيحة من أن كل واقع بقضاء الله تعالى وقدره. وفي الشطر الثاني استغيث للمقتول بالقاتل — لا منه — ويستنجد للأسد بالغزال: وهو بديع.

(٣) رنا: يرنو رُنُوًّا، والرنوّ إدامة النظر مع سكون الطرف.

يا ويح: كلمة تقال لمن وقع في الشدة والمكروه يستنجد له بالرأفة والرحمة مما وقع فيه. قال الأزهري «الفرق بين ويح وويل أن ويل تقال لمن وقع في هلكة أو بلية لا يترحم عليه. وويح تقال لكل من وقع في بلية يرحم ويدعى له بالتخلص منها». قال «وأصل ويح وويس — كلمة رأفة واستملاح — وويل كلمة تهديد وي وصلت بحاء مرة وبسين مرة وبلام مرة».

المعنى — يقول إنه أحسَّ عندما سدد الحبيب نظره إليه بأنه قد ملك عليه لبّه، وأن سهم لحظه قد مضى إلى صميم قلبه. وتطلّب لجنبه — لأنه مثوى القلب — الشفقة والرحمة مما أخذ فيه من الوجد وشاع فيه من الصبابة.

جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبِدِي ٭ جُرْحُ الأَحِبَّةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمِ (٤)
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ ٭ إِذَا رُزِقْتَ التِمَاسَ العُذْرِ فِي الشِّيَمِ (٥)

---

(٤) جحدتها: الجحود: الإنكار مع العلم.

المعنى — لم يشتكِ من تلك الرمية، بل لم يعالج استلال السهم من كبده، وزعم أنه لم ينله ألمٌ من أثر ذلك السهم الذي انتظم كبده، تنزيلا للألم منزلة عدمه ما دامت مراميه عيون الأحبة. قال الشاعر:

«فما لجرح إذا أرضاكم ألم»

وقديماً كان ذلك شأن العشاق فيما ينزل بهم من آلام الوجد والهوى؛ لا يطلبون أسباب السلامة منها، بل تراهم يتطلبون زيادتها لأنها من لوازم الحب، ولا خلاص لهم منها إلا بخروجهم منه.

روى أهل الأدب أن مجنون بني عامر لما أدنفه حب ليلى انطلق به إلى البيت الحرام نفرٌ من أهله، وقالوا له «لو تعلقت بأستار الكعبة فدعوت الله تعالى أن يبرئك من حبها كنت حقيقاً أن يستجاب دعاؤك»، فتشبث بستور الكعبة وقال «اللهم زدني في ليلى حباً» فجُنّ من ذلك الحين جنونه، وهام في بطون الأودية ومسارب الوحش حتى وافته منيته.

وقال الشاعر:

ويا حبها زدني جوًى كل ليلة   ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

(٥) الشيم: جمع شيمة وهي الخلق والطبيعة.

المعنى — يقول إن أنفس الأخلاق وأكرم الخلال أن يُطبع الإنسان على التماس المعاذير للناس فيما تقع عليه نفوسهم مما يحسب من مواضع العيب ومساقط الضعف. والبيت بمثابة التمهيد للبيت الذي يليه؛ كأنه توقع أن يلومه لائم على الحال التي صارت به إلى ما ذكر من تعرضه للقتل واستهدافه للسهام، فقدّم بقوله «رزقت أسمح

ما في الناس ... البيت » فضل الإمساك عن اتباع عثرات الناس وطلب عوراتهم . وفصل في البيت الآتي عذره تفصيلا .

يا لائمي في هواه والهوى قدرٌ ... لو شفّك الوجدُ لم تَعذِل ولم تَلُمِ (٦)
لقد أنلتك أذناً غيرَ واعيةٍ ... ورُبَّ منتصتٍ والقلبُ في صممِ (٧)
يا ناعسَ الطرفِ لا ذقتَ الهوى أبداً ... أسهرتَ مضناكَ في حفظ الهوى فنمِ (٨)

(٦) شفه الوجد : هزله وأنحل جسمه .

المعنى — يقول : يا من يلومني في هذا الهوى ؛ ما كان لك أن تعذل وهذا شيء قدره الله عليّ ووصله بقلبي ، ولو أنه لحقك الهوى وأخذ فيك الوجد ، ونالك ما ينال أهله من السقم والوهن ما أسرعت إلى العذل واللوم .

وقال صاحب البردة في هذا المعنى :

يا لائمي في الهوى العذري معذرةٌ ... مني إليك ولو أنصفتَ لم تلم

(٧) انتصت : سكت سكوت مستمع .

وفي الشطر الثاني من البيت الطباق بين قوله « منتصت » وقوله « في صمم » وقال أيضا في هذا المعنى :

محضتني النصحَ لكن لستُ أسمعه ... إن المحب عن العذّال في صمم

(٨) الناعس : الوسنان — الطرف : بالفتح : العين — المضنى : الذي أثقله المرض ، و « مضناك » الذي أضنيته بما لحقه من الوله عليك .

المعنى — يخاطب معشوقه وقد أخذته عينه سنات لا يسهده وجد ولا يؤرقه شغل بهوى ، على حين لا يغشى الكرى مقلتي عاشقه . ويدعو له بالسلامة من الهوى لئلا يناله ما ينال أهله من السهد والأرق .

وفي الشطر الثاني من البيت الطباق بين قوله « أسهرت » وقوله « نم » .

أفديكَ إلفاً ولا آلو الخيالَ فدى ... أغراكَ بالبخلِ من أغراهُ بالكرمِ (٩)

(٩) آلو : الألوُّ هنا المنع والتقصير — أغراه بالشيء : زيَّنه له وحرَّضه عليه .

المعنى — جعل نفسه فدى للمحبوب من المكاره ، وقال إنه لا يضن بهذا أيضاً على خياله ، على ما بينهما من التباين في الخلق والعادة ، لضن الأول وطول تجنيه واحتجابه ، وكرم الخيال بكثرة تردده وطروقه . ولعل المغرى لكل منهما — على ما حمت — العشقُ ، فإنه من شأنه أن يبعث المعشوق على النفور والتمنع ، ولا يبرح ممثلا على ظله وصورته في مخيلة العاشق لا يُزايلها في يقظة أو منام . قال الشاعر :

أريد لأنسى ذكرَها فكأنما ... تمثَّلُ لي ليلى بكل سبيل

وقال الشاعر :

ما سرتُ إلا وطيفٌ منكِ يصحبني ... سُرًى أمامي وتأويباً على أثري
لو حطَّ رحلي فوق النجم رافعُه ... ألفيتُ ثَمَّ خيالا منك منتظري

سَرى فصادفَ جرحاً دامياً فأسا ... ورُبَّ فضلٍ على العشاقِ للحُلُمِ (١٠)
من الموائسِ باناً بالرُّبى وقناً ... اللاعباتُ بروحي السافحاتُ دمي (١١)
السافراتُ كأمثالِ البدورِ ضحى ... يُغِرنَ شمسَ الضحى بالحلْيِ والعِصَمِ (١٢)

(١٠) سرى : السرى المشي في الليل — أسا الجرح يأسوه : داواه .

المعنى — يريد أن طول هجر المحبوب له وانقطاعه عنه قد أسال مهجته شوقاً له وحنيناً إليه ، حتى إذا تطلع له في عالم الرؤيا سكن به فؤاده ، وابتردتْ من تلك اللوعة كبده ، وذلك من فضل الأحلام على العشاق فإنه إذا فاتهم رؤية المحبوب يقظة وافاهم طيفه مناما ، وربما احتال المهجور على النوم يتوسل به إلى لقاء المحبوب والظفر بخياله .

قال الشاعر :

وأخرج من بين الجلوس لعلنى   أحدّث عنك النفس فى السرّ خاليا
وإنى لأستغشى وما بى نعسةٌ   لعل خيالاً منك يلقى خياليا

(١١) المواثس : جمع مائسة وهى المتبخترة — البان : ضرب من الشجر واحدتها « بانة » يشبه القوام بأغصانها لدونتها — القنا : جمع قناة وهى الرمح — الساخات : مفتح الفم ضحكة وأمثاله .

المعنى — شبه تثنيهن ولدونة أعطافهن بأغصان البان إذا مستها نفحة الصبا . وأبلغ ما يكون ذلك إذا كانت على مرتفع من الأرض . وشبههن أيضا بالقنا لدقتها وكثرة اهتزازها واضطرابها فى أيدى الطاعنين .

(١٢) السافرات : يقال سفرت المرأة كشفت عن وجهها — الحلى : ما تزين به المرأة من مصوغ المعادن وكريم الحجارة والجمع الحلىّ — العصم : القلائد جمع عصمة كعنب وعنبة .

القاتلاتُ بأجفانٍ بها سَقَمٌ * وللمنيّةِ أسبابٌ مِنَ السَّقَمِ (١٣)
العاثراتُ بألبابِ الرجالِ وما * أُقِلْنَ من عثراتِ الدَّلِّ في الرَّسَمِ (١٤)

---

(١٣) المعنى — يقول إنهن يقتلن بعيونهن المراض ، والمرض كثيرا ما يفضى إلى الموت ويكون سببا فيه . ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل .

(١٤) العاثرات : العثرة الزلة والسقطة ، و « أقاله من عثرته » : أنهضه منها — الدل فى الصحاح : الدل قريب المعنى من الهدى وهما من السكينة والوقار فى الهيئة والمنظر والشمائل وغير ذلك — الرسم : حسن المشى .

المعنى — شبه وقوع هواهن فى كل قلب صادفته بالعاثر الذى تزل به قدمه فى الطريق الحزن ، وجعل القلوب مجازا لهن واقترانها موطىء أقدامهن يخفن فيها

ويسلكنها سلوك المتعثر ، فيقعن فى القلب بعد القلب كما يقع العاثر فى الحفرة بعد الحفرة من المهاوى البعيدة .

وفى الشطر الثانى جعل لهن من جمال المنظر وحسن المشية عثرات ، ولعله سماها « عثرات » مشاكلة لما فى صدر البيت . أو أنه شبه تثنيهن وتبخترهن فى مشيهن « بالعاثر » أيضا ، إذ كان لهن ما له من الميل والاهتزاز . أو أنه أراد التعثر الحقيق إذ أنهن يتعثرن فى ثيابهن لطولها وتثنيهن

ويريد بقوله « وما أقلن » أن ذلك شىء ملازم لهن ، وأن عثرات الدل مقصودة بالطبع لا إقالة منها بخلاف سائر العثرات . وقوله « فى الرسم » احتراس لطيف .

المُضْرِماتُ خُدوداً أسْفَرَتْ وجَلَتْ * عن فِتْنَةٍ تُسْلِمُ الأكبادَ للضَّرَمِ (١٥)
الحامِلاتُ لِواءَ الحُسْنِ مُخْتَلِفاً * أشكالُهُ وهو فَرْدٌ غيرُ مُنْقَسِمِ (١٦)
مِنْ كُلِّ بيضاءَ أو سمراءَ زُيِّنَتا * للعَيْنِ والحُسْنُ في الآرامِ كالعُصُمِ (١٧)

---

(١٥) الضرم : اشتعال النار .

المعنى — يقول إن لهن خدودا كالنار فى حمرتها وتوهجها يفتتن بها عقل رائيها وتحترق لها كبد عاشقها .

(١٦) اللواء : العلم — وحمل لواء الحسن : كناية عن نهاية البراعة فيه .

المعنى — يقول إنهن قد تنوعت ضروب جمالهن واختلفت فيهن أقسام الحسن ، والحسنُ فى ذاته شىء واحد ، قد رُمين به جميعا . وقد أوضح هذا فى البيت الذى بعده

(١٧) العصم : جمع أعصم التى فيه « العُصْمة » بالضم وهى بياض اليدين ، والعصماء من المعز البيضاء الذراعين وسائرها أسود أو أحمر . وحرك الصاد اتباعا لحركة العين قبلها .

المعنى — يبيّن فى هذا البيت أن اختلافهن بالبياض والسمرة لا ينافى أنهن جميعاً حسان . ألا ترى أن الحسن فى الآرام — وهى الخالصة البياض — مثل الحسن فى أخواتها التى تهجّن بياضها فى سوادها وهى العصم ؟

وصح تثنية الضمير فى قوله « زينتا » لأن « أو » فى البيت للتنويع .

يَرُعْنَ لِلْبَصَرِ السَّامِي وَمِنْ عَجَبٍ * إِذَا أَشَرْنَ أَسَرْنَ اللَّيْثَ بِالْعَنَمِ (١٨)
وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَّمْتُ الْفُؤَادَ رُبًى * يَرْتَعْنَ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكَمِ (١٩)
يَابْنَتَ ذِي اللِّبَدِ الْحَمِيِّ جَانِبُهُ * أَلْقَاكِ فِي الْغَابِ أَمْ أَلْقَاكِ فِي الْأُطُمِ (٢٠)

---

(١٨) يرعن : يخفن — العنم : شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تشبّه بها البنان المخضوبة .

المعنى — يقول إنهن يخيفهن ويذعرهن نظرة المحب إليهن . ويعجب لهذه الرقة وهذا الخور فهن مع أنهن إذا أشرن إلى الليث — وهو أشد الحيوانات وأقواها — بأطراف البنان المخضوبة فقد قتلنه وأسرنه بحسنهن ورقتهن .

وفى البيت جناس بين قوله « أشرن » وقوله « أسرن » .

(١٩) وضعت خدى : وضع الخد هنا كناية عن الخضوع والاستسلام — الكنس : بضمتين جمع كناس وهو مستتر الظباء فى الشجر — الأكم : جمع أكمة وهى الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله

المعنى — يقول : إنه أذعن لحبهن ووهب لهن فؤاده وجعله لهن مقيلا وملعبا . يريد تمكن حبهن من قلبه وتفرغه للاشتغال بهن دون كل شىء سواهن .

(٢٠) اللبد : جمع لبدة وهى الشعر المتراكب بين كتفى الأسد — الغاب : جمع غابة وهى الشجر المتكاثف — الأطم : القصر وكل حصن مبنىّ بالحجارة .

المعنى — التفت إلى محبوبته يقول لها : يابنت الرجل الذى هو كالأسد فى بأسه وعزه وامتناع حماه ، خبرينى أين ألقاك ؟ أفى الغاب مسكن الأسود أمثال أبيك ؟ أم فى القصر حيث تنزل الغانيات أمثالك ؟ ويا بعد ما بين المنزلين ! ...

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنَّ مَسْكَنُهُ * أَنَّ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ (٢١)
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرٍ * وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضِرْغَامَةٍ قَرِمِ (٢٢)

---

(٢١) عنّ الشىء : بان وظهر . المنايا : جمع المنية وهى الموت .

المعنى — يريد « بالمنى » محبوبته أو لقاءها ، و « بالمنايا » أباها أو لقاءه مبالغة . و « مضرب الخيم » : المكان الذى تضرب فيه وتقام ، أى حيث تنزل تلك المحبوبة فى جوار أبيها . وفى البيت جناس .

(٢٢) الصمصامة : السيف . الضرغامة : الأسد . القرم : شديد الشهوة إلى اللحم ، وهى هنا كناية عن شدة البأس والافتراس .

أراد « بالغصن » و « الريم » معشوقته و « بالصمصامة » و « الضرغامة » أباها .

المعنى — يتعجب من أنه كيف يولد لمثل هذا الرجل الشبيه بالسيف فى صلابته ومضائه مثل هذه المعشوقة التى هى كالغصن فى الليونة وانعطاف الثنى . وأيضاً كيف يكون لمن يشبه الأسد فى قوته وسطوته وبأسه مثل هذه التى تشبه الغزال فى رقته وضعفه .

بَيْنِي وَبَيْنَكِ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجُبٌ * وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ (٢٣)
لَمْ أَغْشَ مَغْنَاكِ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرًى * مَغْنَاكِ أَبْعَدُ لِلْمُشْتَاقِ مِنْ إِرَمِ (٢٤)

---

(٢٣) العفة العذرية : نسبة لقبيلة بنى عذرة اشتهر شبابها بالعشق والعفاف . قيل لفتى من فتيانها : كيف يقتلكم العشق وتذهب بنفوسكم الصبابة ؟ فقال : لأن فى نسائنا جمالاً وفى رجالنا عفة .

العصَم : جمع عصمة وهى المنع والحفظ .

المعنى — يقول : إنه يحجبنى من طروق دارك مانعان شديدان أحدهما ما أقامه

أهلك حولك من سمر القنا ، ولثناك ما ينهانى من خلق ويزجرنى من عفتى التى هى كعفة بنى عذرة .

لم يبتئس بما حاطها أهلها دونه من أسباب القوة ، ولم يجعله مانعاً وحده من موافاتها فى كسر بيتها ، فإن العاشق إذا صدقت صبابته وأسرف فيه الهوى خاض إلى محبوبته ظُبى السيوف ومشى إليها على أطراف الأسنة لا يلوى به شىء ، وكثيرا ما تخطَّى العاشقون الأحراس ومشوا إلى هواهم فى سر من العذال والرقباء غير متحشمين — لا درَّ درهم — ولا وجلين .

قال الشاعر :

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً   علىَّ حراصاً لو يُسِرون مقتلى

ولكنه جعل من عفتها مانعاً ، ومن خلقها حاجبا . قال الشاعر :

ويا عجبى ما لى وما لكِ كلما   هممتُ بأمرٍ همَّ لى منكِ زاجرُ

(٢٤) غنى المكان : وأقام . المغنى : المنزل الذى غنى به أهله . الكرى : النوم . إرم : هى إرم ذات العماد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم . قيل هى مدينة ، فقيل الاسكندرية ، وقيل دمشق ، وقيل إنها كانت ببلاد اليمن تسكنها عاد ثم درَستْ آثارها . ويؤخذ من تاريخ سبائك الذهب للبغدادى مثل ذلك .

والأصح أنها قبيلة ، بدليل قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعادٍ إرم ذات العماد) على الإبدال أو عطف البيان . وفى قراءة (بعاد إرم) على الإضافة التى للبيان أو إضافة الابن للأب ، ويؤيده ما قيل فى تفسير قوله تعالى (بعاد ارم) من أن إرم أبو عاد وهو إرم بن عوص بن سام بن نوح . وعلى هذا فقوله تعالى (ارم ذات العماد) أى ذات الشمم والرفعة والعلو ، ومنه قولهم فلان طويل النجاد رفيع العماد ، ولا عبرة بما احتمله بعض القصاصين من أنه كانت ثمت مدينة مبنية بالذهب والفضة ، وأن عمدها كانت مرصعة باليواقيت والجواهر إلى غير ذلك مما خرفوا به وتخرصوا فيه .

والصحيح أن الكلام فى قوله تعالى (لم يخلق مثلها فى البلاد) على تقدير المضاف أى مثل أهلها فى البأس والقوة على حد قوله تعالى : (واسأل القرية) أى أهلها ، ولا حاجة إلى تقدير المضاف إذا كانت اسم قبيلة كما هو الأصح . والله أعلم .

المعنى — يقول إن لما ذكرت من الحوائل بينى وبينك لا أزور دارك إلا فى المنام ، إذ لا يستطيع أن يمنعنى من ذلك مانع . أما فى غيره فدارك على قربها أبعد من إرم على بعدها وامتناعها ، لما يطوف بها من تلك الحوائل الشديدة .

قال الشاعر :

وإن مقيماتٍ بمنعرج اللوى   لأقربُ من ليلى وهاتيك دارها

وقرب الدار على هذه الحال أدعى إلى شدة الوجد وزيادة أسباب الشوق ، قال الشاعر :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الديار من الديار

يَا نَفْسُ دُنْيَاكِ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ * وَإِنْ بَدَا لَكِ مِنْهَا حُسْنُ مُبْتَسَمِ (٢٥)

(٢٥) المبتسم : بمعنى المصدر أى الابتسام ، ويجوز أن يراد به الموضع أى الثغر ، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف .

المعنى — يعظ نفسه ويحذرها الاغترار بالدنيا وزينتها ، وينهاها عن الانخداع بأسباب زخرفها وإقبالها ، فإن وراء ذلك ما يبكى من جسيمات الحوادث وعظيمات النوازل .

قال الشاعر :

هى الدنيا تقول بملء فيها   حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى ابتسام   فقولى مضحك والفعل مبكى

ونرى الشاعر قد اقتضب القول اقتضاباً ، وانتقل من فن إلى فن ، وهجر الغزل والتشبيب إلى ذم الدنيا والتحذير من كيدها ومكرها بدون مناسبة ظاهرة .

والاقتضاب — كما قال العلماء — مذهب الجاهليين والمخضرمين وقد وقع الكثير منه فى كلام المحدثين . ومن أشهر ما اشتهر منه قول أبى تمام :

لو رأى اللهُ فى الشيب خيراً   جاورَتْه الأبرارُ فى الخلد شيبا
كلَّ يومٍ تُبدى صروفُ الليالى   خُلُقاً من أبى سعيدٍ عجيبا
طاب فيه المديح والتذَّ حتى   فاق وصف الديار والتشبيبا

وأنت ترى أنه لا مناسبة بين ذم الشيب وتهجينه وبين ما تبدى صروف الليالى من غرائب أخلاق الممدوح وعجائب سجاياه .

• قالوا : ومن الاقتضاب ما يقرب من التخلص كقول القائل بعد البسملة والحمدلة « أما بعد » ، وإنما قرب من التخلص لأنه يشوبه شىء من المناسبة .

وإذا أخطأتْ نظرتك الأولى وجه المناسبة بين قول الشاعر « يا نفس دنياك ... البيت » وبين معنى ما تقدمه ، وافقته ولا محالة نظرتك الثانية . ألست تراه قد تغزل وتشبب ، وعرّض جنبه للسهام ، وجسمه للسقام ، وذاب شوقاً على تلك المشوقة ، التى ألفت بين جفون عينيه أشد الحرقة ، وفرقت بين أهدابها أبلغ الفُرقة ، حتى إذا حدثته نفسه بطلبها والوصول إليها كانت أمنع عليه من ساكن الأجم ، وكان منالها أبعد للمشتاق من إرم ، ففاء إلى نفسه ، وعلم أن الدنيا قد فتنته وعبثت به ، حتى جعلت له إلى مناه أسباباً أوهن من خيوط الشمس ، وما زالت به تهوّن عليه طلب المحال ، وترسله فى طريق الأمانى والأحلام ، حتى تصرّمت آماله ، وتقطعت به حباله ، فأنشأ يذم هذه الدنيا وينعى عليها لؤمها وغدرها ، ويحذر الناس من فتنتها ومكرها ، ورجّع نفسه بعد الضلالة إلى الصواب ، وضرب بينها وبين باطل الدنيا بأمنع حجاب .

قال الشاعر :

رددتُ إلى التقى نفسى فقرت   كما رُدَّ الحسامُ إلى القراب

فُضَّ بتقواكَ فاهاً كلّما ضحكتْ * كما يُفَضُّ أذى الرقشاءِ بالثَّرَمِ (٢٦)
مخطوبةٌ منذُ كانَ الناسُ خاطبةً * من أوّلِ الدهرِ لم تُرْمِلْ ولم تَئِمِ (٢٧)

---

(٢٦) الرقشاء من الحيات : المنقطة بالسواد والبياض ، وأذى الرقشاء : سمها — الثرم : كسر السن من أصلها .

المعنى — يقول لنفسه : اصرف عنك كيد الدنيا وبلاءها بالزهد فيها وعدم التطلع إلى نعيمها الموبق ، والتزمى طاعة الله كما تبرجت لك وأرادتك على الوقوع فى مناكرها ، ووصلت بباطل وعدها أسباب أملك ورجائك ، كما تتقى الحية بكسر سنها وإهراق سمها .

قال الشاعر :

ما كان أشأم إذ رجاؤك قاتلى   وبنات وعدك يعتلجن ببالى
فالآن يا دنيا عرفتك فاذهبى   يا دارَ كلِّ تشتتٍ وزوال

(٢٧) لم ترمل : أرملت المرأة إذا مات عنها زوجها .

لم تئم : آمت المرأة من زوجها تئيم . والأيم التى لا زوج لها سواء كانت بكراً أو كان لها زوج وفقدته .

المعنى — يقول إنه ما زال الناس من أول عهدهم بالحياة راغبين فى الدنيا ، متطلعين إلى نعيمها ، وما زالت هى راغبة فيهم متوسلة بأسباب فتنها إلى عقولهم . فلا هى تتركهم وتسكن عنهم ، ولاهم يفترون عنها ويزهدون فيها ، وشبهها وإياهم فى فرط الرغبة واتصال أسباب الألفة بالمرأة المخطوبة التى لم يصدع بينها وبين خطيبها موت ولم تنزل بها فرقة .

يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا ٭ جُرْحٌ بِآدَمَ يَبْكِي مِنْهُ فِي الأَدَمِ (٢٨)
لَا تَحْفِلِي بِجَنَاهَا أَوْ جِنَايَتِهَا ٭ المَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ المَوْتِ بِالفَحَمِ (٢٩)

---

(٢٨) الأدم : الجلد .

المعنى — يقول مع أن حالها وحال الناس ما ذكرناه فإن إساءتها ما انتهى حتى أن آدم (عليه السلام) وهو أول الناس ، لا يفنى كيدها ومكرها إلى آخر الزمان . وفي البيت الجناس بين آدم والأدم .

(٢٩) الجنى : ما يجتنى من الشجرة ويقطف من ثمرها . قال تعالى { وجنى الجنتين دان } .

المعنى — رجع إلى نفسه يرشدها إلى عدم الاكتراث بالدنيا وينهاها أن تخف للذائذها أو تتكره إذا جاورتها آلامها .

قال الشاعر :

لا أستقيل زماني عثرةً أبدا   ما شاء فليأت إن الشهد كالصاب

ويعلمها أن سعادة الدنيا وشقاءها بمنزلة سواء ، وكلاهما ألمٌ ، غير أن أحد الألمين يدخل على النفس غير متنكر ولا خادع ، والآخر يستأذن عليها من أبواب غفلتها فيتزين لها ويتجمل حتى يصيب موضع الضعف منها ويجرى عندها مجرى اللذائذ الحقيقية .

وقد ضرب الشاعر لهذا مثلاً بالموت بالفحم والموت بالزهر ؛ فإنه من أثر الاختناق في كلتا الحالين سواء كان هذا الاختناق من دخان الفحم أو من أريج الزهر .

بِكَمْ نَائِمٍ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ ٭ لَوْلَا الأَمَانِي وَالأَحْلَامُ لَمْ يَنَمِ (٣٠)
طَوْرًا تُمِدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ ٭ وَتَارَةً فِي قَرَارِ البُؤْسِ وَالوَصَمِ (٣١)
كَمْ ضَلَّلَتْكَ وَمَنْ تُحْجَبْ بَصِيرَتُهُ ٭ إِنْ يَلْقَ صَابًا يَرِدْ أَوْ عَلْقَمًا يَسُمِ (٣٢)

---

(٣٠) يريد بالنائم المغتر بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها .

المعنى — يقول إن كثيراً من الناس قد سكنوا إلى الحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وذهلوا عما يجرى فيها من الآيات والعبر ، وهي عاملة فيهم ؛ ترميهم بأصناف الكيد ، وتضطرهم إلى أبواب الضر والأذى . ولو أنهم فطنوا لها ولم تخدعهم بباطل ما تمنيهم وتمدهم ، ما ذاقت أجفانهم الغُمْض ، ولا وجد الكرى إلى عيونهم سبيلا .

قال الشاعر :

الليل يعمل والنهار ونحن عمّا   يعملان بأغفل الغفلات

(٣١) الوصم : بالتحريك الألم والمرض ؛ يقال وصّمته الحمى فتوصّم أي آلمته فتألم .

المعنى — يقول إن الدنيا لا تستقر في شأن الإنسان على حال ؛ فمرة تمده بوجوه العافية والنعم ، ومرة ترميه بضروب الشقاء والألم . وهذا التقلب في طبيعتها دليل على خستها وهوان شأنها .

قال الشاعر :

لا تحمد الدهر في بأساء يكشفها   فلو طلبت دوام البؤس لم يدُم

(٣٢) الصاب : جمع صابة شجر مر — العلقم : الحنظل — يسم : سام يسوم رعى يرعى .

يقول لنفسه : كثيراً ما فتنتك الدنيا ، ومن تفتن فقد سلبت عقله وملكت عليه

نفسه ، حتى أنه ليتجرع الصاب يراه من ألطف أنواع الشراب ، وينال من الحنظل يجده من أطيب ألوان الطعام .

« والشرىُ أرىٌ عند أكل الحنظل »

كل هذا كناية عن استرسال الناس فى طلب الشهوات الحقيرة يظنونها لضعف نظرهم لذائذ حقيقية وهى فى الحقيقة أوجاع وأسقام ، ويتحاسبون على متاع الدنيا وهو زائل فان .

يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَهَا وَدَهَا ۞ مُسْوَدَّةُ الصُّحْفِ فِي مُبْيَضَّةِ اللِّمَمِ (٣٣)

---

(٣٣) (يا ويلتاه) ويل مثل ويح إلا أنها كلة عذاب ، يقال ويله وويلك وويلى . قال الأعشى :

قالت هُريرةُ لما جئت زائرها   ويلى عليك وويلى منك يا رجل

وحذف المفعول فى قوله (دها) أى دهاها . قال تعالى « ما ودّعك ربُّك وما قلى »

اللمم : جمع لمة وهى الشعر يجاوز شحمة الأُذن .

مسودة الصحف : كناية عن العمل السيء ، ومبيضة اللمم : الشيب ، والإضافة فيهما من إضافة الصفة للموصوف .

المعنى — يتفجع على نفسه وقد أخافه وخلع قلبه ما رآه من نهوض الشيب فى رأسه (وهو إنذار بدنو الأجل واقتراب ساعة الحساب) ، ولم يره قد ادّخر لآخرته عملاً صالحاً تبيضُ به صحيفته يوم تنشر الصحف وتجزى كل نفس بما عملت وهم لا يظلمون .

رَكَضْتُهَا فِي مَرِيعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا ۞ أَخَذْتُ مِنْ حِمْيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخَمِ (٣٤)

---

(٣٤) ركضتها : أصل الركض تحريك الرجل . ويقال ركضتُ الفرس برجلى إذا استحثثته ليعدو . والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها فى طريق غوايتها . وفيه تشبيه النفس بالسائمة تشبيهاً مضمراً فى النفس على سبيل الاستعارة المكنية .

المريع : الخصيب ، ومريع المعصيات : من إضافة المشبه به للمشبه ، أى المعصيات التى هى شبيهة بالمرعى المريع تستطيبه الدابة ، ففيه تشبيه ضمنىٌّ لمن يرسل نفسه فى المعاصى ، بالبهيم الذى يستطيب المرعى ويسترسل فيه

حمية الطاعات : كذلك من إضافة المشبه به للمشبه أى الطاعات التى هى شبيهة بالحمية ، وفيه أيضاً تشبيه ضمنى لمن يتعفف عن مساورة المعاصى بمن يمسك نفسه أن ينال ما يهيضه من ألوان الطعام .

التخم : جمع تخمة ، قيل هى فساد الطعام فى المعدة ، وقيل فساد المعدة بالطعام . وقوله للتخم : أى للتحرز عن التخم .

المعنى — فصّل فى هذا البيت ما أجمل فى البيت السابق بقوله : (مُسْوَدَّةُ الصحف) ، فقال إنه أطلق نفسه فى ذوق الشهوات وأسرف فى تناول المعصيات كما يطلق الجواد فى المرعى الخصيب ، ما احتمى عنها ، ولا تحسب لعواقبها بطاعة الله تعالى واجتناب ما نهى عنه ، كما يحتمى الآكل عن الطعام الضار وإن التذّ طعمه وطاب مذاقه .

هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللَّذَّاتِ تَطْلُبُهَا ۞ وَالنَّفْسُ إِنْ يَدْعُهَا دَاعِي الصِّبَا تَهِمِ (٣٥)
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْأَخْلَاقِ مَرْجِعُهُ ۞ فَقَوِّمِ النَّفْسَ بِالْأَخْلَاقِ تَسْتَقِمِ (٣٦)

---

(٣٥) هامت الناقة على وجهها : ذهبت ترعى .

داعى الصبا : اللهو والشباب والفتوة .

المعنى — يقول إن نفسه انطلقت فى التماس اللذات وتحصيلها ، وذلك شأن النفوس متى كانت فى عنفوانها وتحركت إليها اللذات ، وتيسرت لها السبل إلى اقتراف المنكرات إلا إذا أدركها لطف الله تعالى وتولاها بحفظه وعصمته فدرجت على الطاعة وسلكت فى شباب سنها سبيل الهدى والعافية ، وقد عدّ النبى ﷺ هؤلاء فى حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله ، قال : « . . . وشاب نشأ فى طاعة الله » ، وقال ﷺ « أحبُّ الخلق إلى الله تعالى شاب تائب ، وأبغض الخلق إلى الله شيخ مُصرٌّ على معاصيه » .

وقد ذهب فى الشطر الثانى من البيت مذهب التمثيل .

(٣٦) المعنى — شرع فى الأبيات المتقدمة على تلك النفس وأدوائها ، وقرر فى هذا البيت طبها ودواءها ، وأنه لا منجاة لها ولا عاصم يعصمها من التحدر فى تلك المهالك إلا بتربية الأخلاق الكريمة وإنماء ملكة التقوى ، حتى يكون منها بين النفس وبين الرذائل حجاب غليظ ، فلا تطوها شهوة ، ولا تسطو عليها منقصة . قال الشاعر :

لنعم فتى التقوى فتىً عاف الخنى   خميصٌ من الدنيا نقىُّ المسالك
فتىً ملك اللذاتِ لا يستعبدْنه   وما كل ذى لبٍّ لهن بمالك

وذلك أبلغ حال لإمساك النفس وتعففها .

لا ترجع الأنفسُ عن غيها   ما لم يكن منها لها زاجر

ومن أمثل ما يروى من الشعر فى فضل الأخلاق وأثرها فى النفوس قول صاحب القصيدة نفسه :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقد جرى فى البيت مجرى المثل .

وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ * وَالنَّفْسُ مِنْ شَرِّهَا فِي مَرْتَعٍ وَخِمِ (٣٧)
تَطْغَى إِذَا مُكِّنَتْ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوًى * طَغْيَ الْجِيَادِ إِذَا عَضَّتْ عَلَى الشُّكُمِ (٣٨)

(٣٧) المرتع : رتعت الماشية ترتع رتوعا أكلت ما شاءت ، وترتع : تنعم والمرتع موضع الرتوع — الوخم : الردىء الوبىء .

المعنى — يريد أن النفس ما دامت آخذة بخير الخلال وأكرمها فهى فى أعلى السعادات وأوفاها ، وإذا أمسكت برذولها وأخذت بالدون منها صارت لا محالة إلى شر حال ، وكان عاقبة أمرها خسرا .

(٣٨) الشكم : جمع شكيمة وهى الحديدة المعترضة فى لجام الفرس .

المعنى — شبه طغيان النفوس وسورتها لانتهاب ما يقع لها من اللذائذ ، وإسرافها فى أبواب هواها ، بالخيل إذا عضت على شكيمتها ، فإنها على هذه الحال تكون أشد ما تكون ثورة وهياجا .

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغُفْرَانِ لِي أَمَلٌ * فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرِ مُعْتَصَمِ (٣٩)
أُلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ عَلَى * مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْغُمَمِ (٤٠)

(٣٩) معتصم : عصمة الله العبد حفظه مما يوبقه ويهلكه ، والمعتصم الموضع منها أو بمعنى المصدر أى الاعتصام .

غفران الذنب مهما كان قدره ممكن فى ذاته ، والله تعالى لا يخرج عن قدرته شىء من الممكنات ، ما يقع منها وما لا يقع أصلا ، وقد جاء الشارع الحكيم ببيان ما يحتمل الوقوع بالفعل فى هذه المسألة بينها ، فقال عز من قائل : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . ولعله قد استولت الدهشة على الشاعر

والهيبة من الله تعالى لما أسلف من الذنب العظيم حتى وقع فى مخيلته أن مثل هذا الذنب لا يغفر له : فليس مراده ما يتبادر من ظاهر قوله من أن مغفرة الله تضيق عن مثل هذا .

ولكنه رجع واستمسك بحبال الأمل فى عفو الله ورحمته الواسعة .

وفى الحديث القدسى : ﴿ أنا عند ظن عبدى بى إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴾ وقال أحدهم فى هذا المعنى :

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت   إن الكبائر فى الغفران كاللمم

(٤٠) الغمم : جمع غمة وهى الهم والحزن .

المجير : هنا المنقذ — إذا عز المجير : أى يوم القيامة .

مفرج الكرب فى الدارين : هو الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه أخرج الناس فى الدنيا من ظلمة الغواية إلى نور الهداية ، وهو فى الآخرة صاحب الشفاعة العظمى — ورجاؤه — فى البيت سؤاله الشفاعة التى ذكرها فى البيت الآتى :

وقد تخلص الشاعر فى هذا البيت إلى المقصود بأبدع أسلوب .

إذا خفضت جناح الذل أسأله * عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم (٤١)

---

(٤١) الأمم : اليسير .

خفض جناح الذل : كناية عن شدة التواضع والانكسار وقد وردت هذه الكناية فى الكتاب العزيز ، قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ .

« الشفاعة » سؤال الخير للغير ، وهى للنبى ﷺ سؤاله يوم القيامة كشف الضر وتفريج الكرب عن المؤمنين .

وأحاديث الشفاعة الدالة عليها صريحاً كثيرة ، ورواتها كثيرون ، وطرقها عدة وهى وإن اختلفت ألفاظها إلا أنها مجمعة على أن للنبى الشفاعة يوم القيامة فى مواطن .

المعنى — معنى البيت موصول بالبيت قبله ؛ يقول : إذا ضاقت بى الحيل يوم القيامة وملكتنى الأوزار والآثام ، ولجت فى التماس المثوبات ، ولم أجد من يعصمنى من العذاب ، فزعت إلى رسول الله ﷺ ، وتوسلت إليه بضعفى وذلى وانكسارى ، وتوسلت به ﷺ إلى عفو الله تعالى ومغفرته . وسؤاله مثل هذا هين عليه يسير ، كيف لا وهو صاحب الشفاعة العظمى ! ..

روى البخارى بسنده الصحيح عنه ﷺ : « يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا » إلى أن قال فيه « فيؤذن لى عليه ، فإذا رأيته وقعت ساجداً ، فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى . يقول : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعط » الحديث . وفى البيت طباق .

وإن تقدم ذو تقوى بصالحة * قدمت بين يديه عبرة الندم (٤٢)

لزمت باب أمير الأنبياء ومن * يمسك بمفتاح باب الله يغتنم (٤٣)

---

(٤٢) العبرة : تحلب الدمع .

المعنى — يقول : إذا عد المتقون ما قدموا من الطيبات وأسلفوا من الحسنات ، توسلت إلى رسول الله ﷺ ببكائى وتندمى على ما فرط منى ، فقبلنى وشفع لى .

(٤٣) أمير الأنبياء : هو نبينا محمد ﷺ لأنه خيرهم وأفضلهم على الإطلاق — ولزوم بابه : كناية عن الالتجاء إلى كرمه وعدم الانصراف عن التوسل به فى قضاء الطلبات ، وهو ﷺ « مفتاح باب الله » لأن فى اتباعه الوسيلة إلى الدخول فى رحمة الله ورضوانه ، وفى الاستشفاع به السبيل إلى عفوه وغفرانه .

فكل فضل وإحسان وعارفة * ما بين مستلم منه وملتزم (٤٤)

علقت من مدحه حبلاً أعز به * فى يوم لا عز بالأنساب واللحم (٤٥)

يزرى قريضى زهيراً حين أمدحه * ولا يقاس إلى جودى ندى هرم (٤٦)

---

(٤٤) العارفة : المعروف .

المعنى — البيت بمثابة العلة لمعنى البيت الذي قبله ، فقد ذكر فيه مبلغ النتيجة في الاستمساك بحبه ﷺ ، وأنه مصدر كل فضل وإحسان ومعروف ، فإن الله تعالى أجرى على يديه كل ما وصلنا به من ضروب الخير ووجوه البر .

وقال أناس صف لنا بعض جوده   فقلت لهم من عنده كل ما عندي

وإذا لم يكن من برٍّ إلا هدايتنا إلى العقيدة الصحيحة والصراط المستقيم المفضي إلى سعادة الدارين لكفى .

(٤٥) اللُّحَم : جمع لُحمة وهي القرابة .

المعنى — يقول : إني بتمداحي له قد اتصلت بحبل أعتز به يوم لا يغني الناس ما أوتوا من الجاه العريض والنسب الرفيع .

(٤٦) يزري : يعيب . القريض : الشعر . زهير : هو زهير بن أبي سلمى المزني ، كان سيداً غنياً في الجاهلية معروفاً بالحلم والحكمة ، شاعراً فحلا ، وهو صاحب المعلقة المشهورة التي أولها :

أمِن أمّ أوفى دمنةٌ لم تكلّمِ   بحومانة الدرّاج فالمتثلّمِ

توفي قبل الإسلام بقليل . ومن أولاده كعب صاحب « بانت سعاد » ، وبُجير ، وهما صحابيان رضي الله عنهما .

هرم : بكسر الراء هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المرّي .

مدح زهير هرماً فأحسن ، ووصله هرم فأجزل الصلة وبالغ في العطاء . ومن أشهر ما قال فيه زهير :

من يلق يوماً على علاته هرماً   يلق السماحة منه والندى خُلُقاً

المعنى — يقول : إني إذا مدحت الرسول ﷺ بزّ شعري شعر زهير بن أبي سُلمى — على براعة قوله وفخامة نظمه — لا أطمع في عرض الدنيا طمع زهير في صلات هرم ونواله ، لأني أكرم من هرم وأجود ، فأنا أعظم منه وفراً وأكثر مالاً ، بل أبتغي بقريضي محض رضاء الرسول الكريم ، واعتزازي بمدحه يوم القيامة على ما قد مرّ بك في البيت المتقدم .

لم يجعل شعره أبلغ من شعر زهير مطلقاً ، بل قيده بما إذا كان مدحاً للنبي ﷺ في قوله « حين أمدحه » ، لأن مدحه يزيد القول بهجة وشرفاً وجلالا

قال الشاعر :

ما إن مدحت محمداً بمقالتي   لكن مدحتُ مقالتي بمحمد

مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَرَحْمَتُهُ ＊ وَبُغْيَةُ اللهِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمِ (٤٧)

---

(٤٧) صفوة الباري : مصطفاه — البغية : المراد — النسم : جمع نسمة وهي النفس أو هي الإنسان .

المعنى — إن محمداً ﷺ مصطفى الخالق من خلقه ، وهو خير البرية وأفضل الناس أجمعين . قال ﷺ « آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر » وقال عليه الصلاة والسلام « أنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » . وهو رحمة لعباده ، قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وهو مراده أي المقصود الأعظم من خلق الخليقة .

وَصَاحِبُ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسْلُ سَائِلَةٌ ＊ مَتَى الْوُرُودُ وَجِبْرِيلُ الْأَمِينُ ظَمِي (٤٨)

---

(٤٨) وجبريل الأمين ظمي : الملائكة لا تظمأ فلعل مراده بالظمأ هنا لازمه وهو الطلب أي الناس ، بمعنى أن حاله تقتضي ذلك إشفاقاً على خلقهم لما يرهقهم من شدة الظمأ وحرج الموقف .

والحوض : ثابت بالأحاديث الصحيحة الواردة من عدة طرق .

روى حديثه البخاري ومسلم والترمذي والحاكم والنسائي والبيهقي وابن حبان والطبري وأبو يعلى وأبو نعيم وابن أبي الدنيا والبزار ، حتى قال القاضي عياض رحمه الله : إن أحاديث الحوض صحيحة والإيمان به فرض . اهـ. وقال القاضي أيضا وحديثه (أي الحوض) متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة ، فذكره مسلم من رواية ابن عمر ، وأبي سعيد وسهل بن سعد وجندب وابن عمرو بن العاص ، وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر ، وابن مسعود وحُذيفة وحارثة بن وهب ، وغيرهم من جلة الصحابة . ورواه غير الإمام مسلم عن الصديق وكثيرين من الصحابة ، إلى أن

قال القاضى : وفى هذا ما يقتضى كون الحديث متواتراً .

وقال بعض شراح البخارى : إن الصحابة الراوين للحوض نيف وثلاثون ، وقال القرطبى : يجب على كل مكلف أن يصدق به لثبوته بالأحاديث التى يحصل بمجموعها العلم القطعى .

وذهب بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى أن المراد به الحوض والظرف مضاف للجملة الإسمية بعده فى قوله « يوم الرسل سائلة » أى يوم سؤال الرسل ، وذلك يوم القيامة .

سَنَاؤُهُ وَسَنَاهُ الشَّمْسُ طَالِعَةً * فَالْجِرْمُ فِى فَلَكٍ وَالضَّوْءُ فِى عَلَمِ (٤٩)
قَدْ أَخْطَأَ النَّجْمَ مَا نَالَتْ أُبُوَّتُهُ * مِنْ سُؤْدُدٍ بَاذِخٍ فِى مَظْهَرٍ سَنِمِ (٥٠)

(٤٩) سناؤه : رفعته — وسناه : نوره — والعلم : هنا العالم .

المعنى — لئن كانت الحقيقة المحمدية قد سمت على جميع الموجودات على كل الكائنات ، فإن نوره ﷺ عم البرايا جميعاً ، وشاع فى الأرض والسماء ، كما يحصل نور الشمس بآفاق هذا العالم السفلى وجرمها جار فى مذهبها الرفيع سابح فى فلكها العلوى ، بل إن حقيقته ﷺ أسمى وأرفع ، ونوره أعم وأنفع .

(٥٠) السؤدد : السيادة .

باذخ : عال — سنم : ككتف مرتفع .

أبوته : أى ذووا أبوته ، والأبوة المعنى المأخوذ من الأب كالأخوة والبنوة ، لأنه وإن كان جامداً يؤخذ منه معنى مصدرى ، كما قالوا التحجر من الحجر ، والتلبن من اللبن ، فالمراد (بالأبوة) هنا آباؤه أى أبوه وأجداده .

يقول إن النجم على علوه وارتفاعه لم يدرك ما أدرك أصوله ﷺ من المجد الخطير والشرف الرفيع .

وإنا ذاكرون لك نسبه الشريف وما كان لبيته الكريم من جليل الخطر وعظيم المنزلة :

فهو ﷺ ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن حكيم بن مُرَّة بن كعب بن لؤىّ بن غالب بن فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة ابن خُزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

قال العلماء : إن النسب إلى عدنان ثابت بإجماع الأمة . وما بعده موضع الخلاف ، فجملة أجداده عشرون عدا أبيه عبد الله .

قال الزهرى إن عبد الله كان أجمل قريش ، فذكر لآمنة بنت وهب جماله وصفته ، وقيل لها : هل لك أن تزوجيه ؟ فأجابت ، فمضى به أبوه فزوجه إياها . اهـ . قال بعضهم : إن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى ودفن بها ، وآمنة حامل بالنبى ﷺ .

وأما عبد المطلب جده الأول ، فاسمه « شيبة » لأنه كان فى رأسه شيبة ، ويقال له شيبة الحمد تفاؤلا بحمد الناس له . كان مفزعاً لقريش فى النوائب ، وملجأهم فى الأمور ، وشريفهم وسيدهم غير مدافع . وكان يقال له الفياض لكثرة جوده ، والمطعم لطير السماء ، لأنه كان يلقى الطعام للطير والوحوش . وكان حليماً حكيماً ، حرم على نفسه الخمر ، ورفض فى آخر عمره عبادة الأصنام ، فوحد الله تعالى . وتؤثر عنه سنن جاء الشرع بها ؛ منها الوفاء بالنذر ، والمنع من نكاح المحارم ، والنهى عن قتل الموءودة ، وتحريم الزنا ، وغير ذلك . وكان وقوراً مهيباً . روى أن رسول أبرهة لما دخل مكة ورآه خضع له وخر مغشياً عليه ، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه . ولما رآه أبرهة أكرمه وأجلسه إلى جنبه وتقدم إلى الترجمان بسؤاله عن حاجته ، فسأله الإبل ولم يسأله البيت ، فقال له أبرهة : أتكلمنى فى الإبل وتدع بيتاً هو دينك ودين آبائك ؟! فقال عبد المطلب : أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه . قال أبرهة : ما كان ليمتنع منى . ورد الإبل ، فجعلها عبد المطلب هدياً للبيت .

وأما هاشم جده الثانى فاسمه عمرو العلاء ، لعلو مرتبته ، وهو أخو عبد شمس . قيل كانا توأمين ، وأن أحدهما ولد قبل صاحبه وأصبعه ملتصقة بجبهة صاحبه ، فنحيت عنها فسال من ذلك دم فتطير من ذلك ، فقيل تكون بينهما دماء . ووقعت العداوة

بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس لأن هاشماً ساد قومه بعد أبيه عبدمناف، فتكلف أمية أن يصنع صنعه ويذهب مذهبه ليشاركه فى المجد ويساميه فى المكرمات ، فأعجزه أمره ، فعيرته قريش وقالوا له : مالك والتشبه بهاشم ! فغضب ونال من هاشم ، ودعاه إلى المنافرة ، قال « وإنى أنافرك على خمسين ناقة تنحر ببطن مكة ، والجلاء عنها عشر سنين » فرضى ، وتحاكما إلى الكاهن الخزاعى بعُسفان ، فقال : لقد سبق هاشم أمية إلى المفاخر ، فنصر هاشماً على أمية ، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل وأطعم الناس ، وخرج أمية إلى الشام فلبث فيها عشر سنين . وكان يقال لهاشم وإخوته « أقداح النضار » أى الذهب . وإنما قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد من العرب أى ثرده وأطعمه المساكين .

قال الشاعر :

عمرو العلا ذو الندى لا يسابقه　　مَرُّ السحاب ولا ريحٌ تجاريه

وقال الشاعر :

عمرو العلا هشمَ الثريد لقومه　　ورجال مكة مُسْنِتون عجاف

وقيل إن أول من هشم الثريد وأطعمه الناس إنما هو قصى .

وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السقاية (وهى سقاء الحجيج كله الماء العذب) والرفادة (وهى إطعام الطعام لمن لا سعة له من الحجاج) فكانت تمد لهم الأسمطة فى أيام الموسم . واتفق وهو بالشام أن أصاب أهل مكة قحط شديد ، فاشترى دقيقاً وكعكاً ، وقدم به مكة ، فهشم الخبز والكعك ، ونحر الجزر ، وجعل الثريد ، وأطعم الناس حتى أشبعهم . وكان يقال له « سيد البطحاء » قال بعضهم : لم تزل مائدته منصوبة لا ترفع فى السراء والضراء .

وأما عبدُ منافٍ جده الثالث فاسمه المغيرة ، وكان يقال له القمر لحسنه وبهائه ، وكان يقول فى كتاب له « أوصى قريشاً بتقوى الله جل وعلا وصلة الرحم » . وكان الجد الرابع لعثمان بن عفان والتاسع للإمام الشافعى رضى الله عنهما .

وأما « قصى » الجد الرابع فاسمه زيد ، وأمه فاطمة بنت سعد بن سَيَل ، وقيل له قصى لأنه قصى أى بعد إلى قضاعة مع أمه . أخبرته أمه بأن كاهنة رأته صغيراً فقالت لها إن ولدك هذا يلى أمراً جليلا ، فلما انتهى إلى مكة مع حجاج قضاعة أكرمه قومه وقدموه عليهم لوضع نسبه وما رأوا فيه من آيات النُّبل . ساد فيهم ، وكان أمر مكة بيد حليل الخزاعى — وهو آخر من ولى أمر البيت والحكم بمكة من الخزاعيين — فلما مات تولى قصى أمر البيت ، واستلم مقادة الحكم بعد إخراج خزاعة من مكة . لأن قريشاً أدنى إلى إسماعيل عليه السلام من خزاعة . وقيل إن حُليلا هو الذى ولى قصياً الأمر لأنه زوج ابنته حُبّى ، وقيل إن حُليلا جعل ذلك لابنته ، فقالت له « لا قبل لى بفتح البيت وإغلاقه » ، فأوصى به لأبى غبشان الخزاعى واسمه سليم بن عمرو .

فلما صار إليه أمر البيت وسدانة الكعبة اجتمع مع قصى بالطائف على شراب ، فأسكره قصى ، واشترى منه مفاتيح البيت بزق خمر ، فعيرته العرب فأنكر البيع وقال إنما رهنها له ، فتنازعوا ، ووقعت الحرب بين قصى وخزاعة ، فظهرت قصى على خزاعة وأجلوهم عن مكة ، وصارت لأولئك مفاتيح الكعبة لا ينازعهم فيها منازع . قال الشاعر فى هذا المعنى :

أبو غُبْشان أظلم من قصىٍّ　　وأظلمُ من بنى فِهْرٍ خُزاعه
فلا تلحوا قريشاً فى شراء　　ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وذهب المثل بتلك الصفقة فيقال : « أخسر من صفقة أبى غُبْشان » .

ولما أفضى أمر البيت إلى قصى وولى الحكم ، جمع قبائل قريش فأنزلهم أبطح مكة ، وكان بعضهم فى الشعاب ورؤوس جبال مكة ، فقسموا منازل خزاعة . فسمى قصى لذلك مُجمِّعاً . قال الشاعر :

أبوكم قصى كان يدعى مُجمِّعاً　　به جمع الله القبائل من فهر

فكان قصى أول ولد لكعب بن لؤى أصاب ملكا أطاعه به قومه ، فكانت إليه « سدانة » البيت ، فهو الذى يفتح الكعبة ويغلقها ، وكانت إليه « السقاية » فلا ينال أحد بمكة الماء إلا من سقايته ، وكانت إليه « الرفادة » فلا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامه ، وكانت فى داره « الندوة » ، فلا تقضى قريش فى أمر من أمورها إلا قامت على تدبيره فى داره ، وكان لا يعقد لقريش « لواء » حربهم إلا هو ، فهو صاحب الحجابة والسقاية والندوة واللواء والرفادة .

وكانت قريش تجعل من أموالها فى كل موسم خرجاً لقصى كان قد ضربه عليهم ،

فيصطنع به طعاما للحجاج يأكل منه من لا سعة له ولا زاد ، فأداوم الخرج واصطناعه الطعام للوافدين من الحجاج هو « الرفادة » ، وقد صار ذلك عادة على قومه في الجاهلية ، حتى قام الإسلام ، فكان بعض السلاطين يصنع كل عام الطعام بمنى لفقراء الحجاج .

وأما جده الخامس فاسمه حكيمٌ وقيل عروة ، ولقب بكلاب لأنه كان يحب الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب ، وهو الجد الثالث لآمنة أمه ﷺ ، فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه .

وأما مُرّةُ جده السادس : فهو الجد السادس أيضاً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه . وفي مُرّة أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول ﷺ .

وأما كعبٌ جده السابع : فهو الجد الثامن لعمر رضي الله عنه . كان يجمع قومه يوم العروبة « أي يوم الرحمة » وهو يوم الجمعة ، فيعظهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ ويعلمهم بأنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ويقول : سيأتي لحرمكم نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ، وقيل إنه كان يقول :

على غفلة يأتي النبي محمد   فيخبر أخبارا صدوق خبيرها

قيل إنه أول من قال « أما بعد » ، فكان يقول « أما بعد فاسمعوا وافهموا واعلموا وتعلموا » . وقيل له « كعب » لارتفاع شأنه في قومه ، لأن « الكعب » هو العالي المرتفع . وكان من شرف الموضع وعلو المحل بحيث كان القوم يؤرخون بموته حتى عام الفيل ، فأرخوا به ثم بموت عبد المطلب حتى ظهر الإسلام وأرخ أمير المؤمنين عمر رضي الله بالهجرة .

وأما جده الثامن فهو لؤيٌّ — والهمز فيه أكثر من تركه — وفي سبب تصغيره خلاف ، وأمه عاتكة بنت يخلد بن النضر بن كنانة .

وأما جده التاسع فغالب ، وأمه ليلى بنت الحرث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مُدْرِكة .

وأما فِهْرٌ جده العاشر : فهو جماع قريش ، وأمه جندلة بنت عامر . سماه أبوه فِهْراً وقيل هو لقب ، واسمه قريش ، وسمي بذلك لأنه كان « يقرش » أي يفتش خلة المحتاج فيسدها بماله ، وكان بنوه « يقرشون » أهل الموسم عن حوائجهم ، فيرفدونهم ، فسموا بذلك « قريشا » . وهو الذي أسر حسان بن كلال حين أقبل مع حمير وغيرهم من اليمن يريدون نقل حجارة الكعبة من مكة إلى اليمن حتى يتحول الحاج إليهم ، فخرج فهر هذا في قبائل كنانة وخزيمة وأسد وغيرهم ، وكان رئيسهم ، فهزموا حميراً بعد القتال الشديد ، وردّوهم وأسروا ملكهم

وفهر هذا هو الجد السادس لأبي عُبَيْدة بن الجراح .

وأما مالك جده الحادي عشر : فأمه عكرشة بنت عدوان ، وهو الحارث بن عمرو ابن قيس ، ولقب بمالك لأنه ملك العرب وساد عليهم .

وأما النَّضْرُ جده الثاني عشر : فاسمه قيس ، وأمه برّة بنت مُرّ بن أدّ بن طابخة . قيل إنه جماع قريش ، وقد تقدم أن جماعهم فِهْر ، وعليه يكون الذين فوق فهر ليسوا من قريش .

وأما كنانة جده الثالث عشر : فأمه عوانة بنت سعد بن قيس بن عيلان ، ودعي بكنانة لأنه كان « يكنّ » أمور قومه وكان جماع سرهم .

وأما خُزَيمة جده الرابع عشر : فأمه سلمى بنت أسلم القُضاعيّة ، وكان هذيلٌ أخاه لأبيه وأمه ، وتغلب أخاه لأمه .

وأما مُدْرِكةُ جده الخامس عشر : فاسمه عمرو وأمه ليلى بنت حُلْوان . وقيل له « مدركة » لأنه أدرك كل عز وفخر السبق لآبائه وكان يظهر فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما إلياسُ جده السادس عشر : فأمه الرّباب بنت حيدة بن معدّ ، وكان عند العرب عظيم القدر ، فكانوا يدعونه كبير القوم وسيدهم ، وكانوا لا يقضون أمراً دونه ، وهو أول من أهدى البُدْن إلى البيت . وكان للعرب مثل لقمان الحكيم في قومه . وجاء : « لا تسبّوا إلياس فإنه كان مؤمنا »

وأما مُضر جده السابع عشر : فأمه سودة بنت عكّ ، وأخوه لأبيه وأمه إياد . ويقال له مُضر الحمراء لأنه أخذ من ميراث أبيه الذهب وترك الخيل لأخيه ربيعة . وجاء « لا تسبّوا مُضر وربيعة فإنهما كانا مؤمنين » ومن قوله : « من يزرع شراً يحصد ندامة » .

وأما نزار جده الثامن عشر : فأمه معانة بنت جوشم ، وكنيته أبو ربيعة . وكان

يُرى نور النبي ﷺ بين عينيه ، وهو أول من كتب الكتاب العربي على الصحيح . وفي نزار يجتمع نسب الإمام أحمد بنسبه ﷺ .

وأما معدّ جده التاسع عشر : فأمه مهدد بنت اللهم ، وقيل له معدّ لأنه كان صاحب حروب وغارات ، وما حارب أحداً إلا وكان النصر معقوداً بلوائه .

وأما عدنان جده العشرون : فهو آخر النسب المتفق عليه كما مر بك ، لا يختلف فيه النسابون ، فلا نخوض فيمن يليه لعدم الوثوق بصحته .

فأنت ترى أنه قد اجتمع لبيته ﷺ من أسباب السيادة والمجد وكرم المنبت وشرف المحل ما لم يجتمع لبيت غيره . والسق لجدوده من المكرمات ما لم يُسهم بمثله عامة العرب — على كثرة قبائلهم ولمدد فروعهم — وحسبك أن يجتمع لقُصَيّ (جده الرابع) كل وجوه الرياسات التي تقسَّمتها العرب وتنازعتها القبائل لأنها كانت ملاك شرفهم ، وجماع سيادتهم ومفخرهم ، في الظفر بالخلة الواحدة منها أكرم الموضع وأعلى المنزلة حتى أن القبائل لتظل على طول الأدهار والأزمان تنتسب في مجدها إليها وتصل بها حبلها ، وترتبط بها أصلها ، فما ظنك بها مجتمعة كلها في بيت واحد في رجل واحد هو قُصَيّ جده الرابع ﷺ ! يملكها عن الناس أجمعين غير مُدافع . قال القاضي عياض : « أما شرف نسبه وكرم بلده ومنشئه فمما لا يحتاج إلى إقامة دليل عليه ، ولا بيان مشكل ولا خفي منه ، لأنه نخبة بني هاشم ، وسلالة قريش وصميمها ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبـل أبيه وأمه ، ومن أهل مكة أكرم بلاد الله على الله وعلى عباده . » .

قال ﷺ : « إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم ، ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ، ثم اختار العرب فاختار منهم قريشا ، ثم اختار قريشا فاختار منهم بني هاشم ثم اختار بني هاشم فاختارني منهم فلم أزل خياراً من خيار » .

وقال ﷺ « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، من خير فرقهم ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » .

وقال ﷺ « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » .

نُمُوا إليه فزادوا في الورى شرفاً   ورُبَّ أصلٍ لفرعٍ في الفخار نُمي (٥١)
حواه في سُبُحات الطهر قبلهمُ   نوران قاما مقام الصلب والرحمِ (٥٢)

---

(٥١) نُمُوا : نُسبوا .

قد مرّ بك ما لآبائه من خطر القدر ، ونباهة الذكر ، وقد رأيت بعض ما وصلهم الله به من الشرف الرفيع ، والجاه العريض ، وأصيبهم في المكرمات ، وما كان لهم من الحسب الحسيب ، والعرق العريق ، والهمة الشماء ، والعزمة الماضية التي قصر عنها النجم الثاقب ، ولم تبلغها سابحات الكواكب . مع هذا كله فقد ازدادوا بنسبهم إليه ﷺ شرفاً على شرف ومجداً على مجد .

وإذا كانت الحال قد جرت بأن تشرف الفروع باشتباهها أصولها ، وتنبه الأبناء بانتسابها إلى آبائها ، فالأمر هنا جاء على غير هذا الحكم . وكان رسول الله ﷺ لآبائه وجدوده المنتمى في الفخر والعظم ، والمنتهى في الانتساب إلى المجد والكرم .

وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ   كما علت برسول الله عدنانُ

(٥٢) السُّبُحات : بضمتين مواضع السجود ، وسُبُحات وجه الله : أنواره .

وقد ورد أن الله تعالى خلق الحقيقة المحمدية من نوره فكانت تدور في العرش ويفاض عليها من أنوار تجلياته ، فذانك النوران اللذان احتوياه ﷺ قبل أن تحتويه الأصلاب والأرحام ، وقاما له مقامها : روى عبد الرزاق عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : « يا جابر ، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره . » الحديث . وفي حديث عن ابن القطان : « كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم » الحديث . وفي الخبر « لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره فكان يلمع في جبينه » .

كنتَ نوراً وكان ثَمَّ عماءُ   ونبياً وليس طينٌ وماءُ

لمّا رآهُ بَحيرا قالَ نَعرِفُهُ   بِمَا حَفِظْنا مِنَ الأَسماءِ وَالسِّيَمِ (٥٣)

---

(٥٣) السِّيم: كعنب جمع سيمة وهي العلامة.

بحيرا: بفتح الباء، وكسر الحاء الراهب النصراني المشهور.

ورد كثير من الأخبار عن رؤية بحيرا له ﷺ من ذلك ما رواه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه: أن سبعة من الروم أرادوا قتله وهو مع عمه أبي طالب في سفره إلى الشام، فاستقبلهم بحيرا فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: إن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بُعث إليها بأناس، فقال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. فبايعوه. قال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث رجاله ثقات.

وروى البيهقي وأبو نعيم أن بحيرا رآه وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة بيضاء تظله من بين القوم، ثم أقبلوا حتى نزلوا بظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصّرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها، فقام واحتضنه وجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره، ويخبره ﷺ، فيوافق ذلك ما عنده من صفته، ورأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

وروى ابن أبي شيبة أنه أخذ بيده، وقال «هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين».

سائِلْ حِراءَ وَرُوحَ القُدْسِ هَلْ عَلِمَا   مَصُونَ سِرٍّ عَنِ الإِدْراكِ مُنْكَتِمِ (٥٤)

---

(٥٤) حراء: جبل بمكة فيه غار كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل الرسالة. والمفاعلة من قوله «سائل» على غير بابها، والمراد «اسأل» وعبر بالمفاعلة للمبالغة.

روح القدس: جبريل عليه السلام قال تعالى «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالحَقِّ» والإضافة فيه من إضافة الموصوف للصفة، أي الروح المقدس، والقدس: الطهر.

مصون سر: من إضافة الصفة للموصوف أي السر المصون، وقوله «منكتم» وصف مؤكد للسر المصون، لأن السر لا يكون إلا كذلك. وتنكير «سر» للتعظيم.

المعنى — إن الله تعالى قد أودعه سراً عظيماً هيأه به لإفاضة الكمالات الإلهية وأعدّه لأعلى مراتب النبوة والرسالة، ما أظهر على ذلك أحداً حتى ولا جبريل الذي هو أمين وحيه الهابط برسالته إلى نبيّه، ولا حراء الذي لزمه النبي ﷺ واتخذه مثابة ومُتعبَّداً، أي بحيث لو أدرك هذا الجبل وعقل ما فقه هذا السر.

وهذا على أن الاستفهام إنكاري بمعنى النفي. ويجوز أن يكون تقريرياً لتردد جبريل عليه، وملازمته ﷺ في ذلك الحين. لذلك الجبل الذي نزّله الشاعر منزلة العالم بهذا السر بحكم هذه الملازمة وطول مقامه عليه السلام فيه. فقوله «منكتم» أي عما عداهما.

كَمْ جِيئَةٍ وَذَهابٍ شُرِّفَتْ بِهِما   بَطْحاءُ مَكَّةَ في الإِصْباحِ وَالغَسَمِ (٥٥)
وَوَحْشَةٍ لابْنِ عَبْدِ اللهِ بَيْنَهُما   أَشْهَى مِنَ الأُنْسِ بِالأَحْبابِ وَالحَشَمِ (٥٦)

---

(٥٥) البطحاء: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. الغسم: الإمساء وظلمة الليل. وقول الشاعر (في الإصباح والغسم) أي من كل مرة كان يطلب فيها النبي ﷺ حراء، لا كل صباح وكل غسم، فإنه ﷺ كان يتزود فيقيم في حراء الليالي والأيام.

(٥٦) ابن عبد الله: هو نبينا محمد ﷺ، وقد مر بك ذكر نسبه الشريف. الحشم: الخدم الخاصون بمولاهم. الوحشة: الخلوة والهم، والمراد به هنا مجرد الخلوة والانقطاع عن الناس.

وكيف يدركه الضجر من الوحدة وينال السأم من الانفراد وبه من الأنس بجوار ربه وتلقي فيضه ما يقصر عنه القول ولا يحيط به الوصف.

يُسَامِرُ الوَحْيَ فِيهَا قَبْلَ مَهْبِطِهِ ٭ وَمَنْ يُبَشِّرْ بِسِيمَا الخَيْرِ يَتَّسِمِ (٥٧)
لَمَّا دَعَا الصَّحْبُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ ظَمَإٍ ٭ فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّنِمِ (٥٨)

(٥٧) مهبطه : هنا بمعنى هبوطه — أى بالرسالة ، فإن أول ما نزل به الوحى عليه ﷺ قول الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » ثم انقطع الوحى وأبطأ عنه ﷺ ستة وثلاثين شهراً ، فكان يتشوق إليه فيخرج من متعبده يلتمسه فيتراءى له جبريل عليه السلام ويناديه « إنك لرسول الله حقاً » فيسكن به ويتصبر إلى أن انقضت فترة الوحى ونزلت : « يا أيها المدثر قم فأنذر » فابتدأت بذلك رسالته ﷺ

(٥٨) التسنيم : ماء بالجنة يجرى فوق الغرف ، وسنم الإناء تسنيما ملأه . فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء .

الأحاديث الواردة فى نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال فرأيت الماء ينبع ، فتوضأ الناس توضأوا من عند آخرهم .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينا نحن مع رسول الله ﷺ وليس معنا ماء فقال لنا رسول الله ﷺ : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ .

وروى عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا : ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك فوضع النبى ﷺ يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون .

وروى الحديث عن غير هؤلاء من جلة الصحابة وأئمة الدين . قال صاحب الشفاء :

رحمه الله بعد رواية حديث نبع الماء من الطرق المتقدمة ، قال الترمذى : وفى الباب عن عمران بن حصين ، ومثل هذا فى هذه المواطن الحفيلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شىء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك ، ولأنهم ممن لا يسكت على باطل ، فهؤلاء قد رووا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجم الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه فصار كتصديق جميعهم له .

وَظَلَّلَتْهُ فَصَارَتْ تَسْتَظِلُّ بِهِ ٭ غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خِيرَةُ الدِّيَمِ (٥٩)

(٥٩) الديم : جمع ديمة وهى المطر الدائم
تقدم بك خبر تظليل الغمام عليه ﷺ فى حديث بحيرا المتقدم وروى ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنه قال : كانت حليمة لا تدعه يذهب مكانا بعيداً ، فغفلت عنه ، فخرج مع أخته الشيماء فى الظهيرة إلى البهم ، فخرجت حليمة تطلبه حتى تجده مع أخته ، فقالت : فى هذا الحر ؟ فقالت أخته : يا أمه ما وجد أخى حرا رأيت غمامة تظل عليه ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت ، حتى انتهى إلى هذا الموضع .

مَحَبَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ أُشْرِبَهَا ٭ قَعَائِدُ الدَّيْرِ وَالرُّهْبَانُ فِي القِمَمِ (٦٠)

(٦٠) القعائد : جمع قعيدة ، وقعائد الدير : ملازموه من متنسكة النصارى — القمم : جمع قمة وهى أعلا الرأس وكل شىء والمراد بها هنا أعالى الجبال .
المعنى — إن محبته ﷺ قد شاعت فى قلوب أحلاس الديور من متنسكى النصارى ورهبانهم المنقطعين فى رؤوس الجبال للتبتل والعبادة .
وذلك لأنهم قد نبأتهم صحفهم بصفاته وأحواله وأنه ﷺ خاتم الأنبياء المبعوث

بالهدى للناس أجمعين. قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل﴾ الآية. وقال تعالى ﴿ثم جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمنُنّ به ولتنصرُنّه﴾ الآية. وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿ومبشراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمُهُ أحمد﴾.

ولا يذهب عنك ما مر من قصة بحيرا فى هذا الباب، ومثلها ما جاء عن عمرو بن عنبسة السُّلمى قال: لقيت رجلاً من أهل الكتاب فقلت له: إنى امرؤ ممن يعبد الحجارة، وإنى أرى أن عبادتها لا تضر ولا تنفع فدلنى على خير من هذا. فقال: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، فإذا رأيته فاتبعه. فلم يكن لى همٌّ منذ قال: إلا التردد إلى مكة والسؤال عنه، حتى ظهر، فآمنت به.

إنَّ الشمائلَ إنْ رقّتْ يكادُ بها * يُغرَى الجمادُ ويُغرَى كلُّ ذى نَسَمِ (٦١)
ونُودِيَ اقرأْ تعالى اللهُ قائلُها * لم تتّصلْ قبلَ مَنْ قِيلتْ له بفمِ (٦٢)

---

(٦١) الشمائل: جمع شمال الخصلة والصفة — النسم: جمع نسمة وقد مر بك أنها النفس أو الإنسان، والأنسب بها هنا هو المعنى الأول.

المعنى — إن الشمائل إذا لطفت، والخلال إذا كرمت، تألفت النفوس، وجذبت إليها القلوب، حتى أنها ليوشك أن يتأثر بها الجماد الأصم، والحيوان الأعجم.

وقد كان ﷺ من شرف الخلق ولطف النفس بالوضع الذى لا ينال، فسكنت إليه النفوس الثائرة، واستأنست به القلوب النافرة، قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظَ القلب لانفضّوا من حولك﴾. وقد جرى فى البيت مجرى المثل.

(٦٢) المعنى — إن خطاب الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام بقوله ﴿اقرأ باسم ربك﴾ لم يتنزّل على بشر قبله، ولم يجر به فم إنسان قبل أن يوحى إليه ﷺ، وإن خوطب الأنبياء قبله بغير هذا الخطاب، كخطاب الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿خذْ ما آتيتك وكنْ من الشاكرين﴾، وليحيى عليه السلام: ﴿يا يحيى خذ الكتابَ بقوّة﴾، وغير ذلك مما وقع به الخطاب للأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين.

هنالكَ أذّنَ للرحمنِ فامتلأتْ * أسماعُ مكةَ من قُدسيّةِ النغمِ (٦٣)
فلا تَسلْ عن قريشٍ كيف حيرتُها * وكيفَ نفرتُها فى السهلِ والعلمِ (٦٤)

---

(٦٣) أذّن للرحمن: أى دعا إلى الله — وقوله من قدسية النغم: ترشيحٌ لتشبيه الدعاء إلى الله تعالى بالصوت الجميل — وقدسية النغم: النغم المطهرة المنزهة عن تطريب الغناء بتكسير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات، بل كان أذانه (دعاؤه) ﷺ نفحة من نفحات القدس تحدث لها فى النفوس هزة، وتقع بها فى القلوب روعة. وما ظنك بدعوة تأخذ أشد الناس عناداً، وأصلبهم قياداً، وتخرجه فى لحظة واحدة من دين إلى دين، وتسلّ منه فى مثل طرفة العين من الخلق والعقيدة والعادة ما ختمت على قلبه العصور، ونقشت فى صدره الأزمان والدهور، ثم كانت عليه برداً وسلاماً.

قوله هنالك أذّن: يريد به الظرف المتسع المستغرق لمدة الفترة والنهى بنزول الوحى بالرسالة، فقد علمت أنه ﷺ دعا إلى الله بعد نزول «اقرأ باسم ربك» بستة وثلاثين شهراً أى حين نزلت «يا أيها المدثّر قم فأنذر» الآية.

(٦٤) فلا تسل: يعنى أن الأمر واضح غنىٌّ عن السؤال، يقال عند ظهور الأمر ووضوحه «لا تسأل». العلم: الجبل.

المعنى — أنه حين دعا النبىُّ ﷺ عشيرته قريشاً، بلغت منهم الحيرة والاضطراب أن هاموا على وجوههم فى بطون الأودية ورؤوس الجبال لا يلوون على شىء. وذلك كناية عن شدة الارتباك واستعظام الأمر عليهم، ونفورهم من تلك الدعاية التى دعاهم بها رسول الله ﷺ.

تساءلوا عن عظيمٍ قد ألمَّ بهمْ * رمى المشايخَ والولدانَ باللممِ (٦٥)
يا جاهلينَ على الهادى ودعوتِه * هل تجهلونَ مكانَ الصادقِ العلمِ (٦٦)

---

(٦٥) ألمّ: نزل — اللمم: (محركة) الجنون.

المعنى — أنه قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذى نزل بهم وهو أن يقوم فيهم رجل ليس له ما لهم من البأس والنعمة يزجيهم عما كان يعبد آباؤهم — وهم سادات قريش وجبابرتها — ويأخذهم عما ألفوا من عاداتهم وأخلاقهم المركوزة فيهم ، دهشوا لهذا واستعظموه حتى جن منه شيبهم وشبابهم .

(٦٦) العلم : الظاهر المشهور — الجاهلون على الهادى : المتكبرون المنكرون المتعنتون . والاستفهام فى قوله (هل تجهلون) إنكارى .

المعنى — التفت إليهم يؤنبهم على إعناتهم الرسول ﷺ وردهم دعوته وعدم إذعانهم لقوله ، فقال : كيف تنكرون الداعى إلى الحق وتكذبون مقاله وأنتم أعلم الناس بموضعه من الصدق وتنزهه عن قول الزور .

لقبتموهُ أمينَ القومِ فى صغرٍ   وما الأمينُ على قولٍ بمتهمِ (٦٧)
فاقَ البُدورَ وفاقَ الأنبياءَ فكم   بالخلقِ والخلقِ من حسنٍ ومن عظمِ (٦٨)

(٦٧) المعنى — كنتم وهو ﷺ فى شباب سنه تلقبونه بالأمين ، فتقولون « محمد الأمين » ، وذلك لما رأيتم من شدة وفائه وعصمته عن الباطل ونزاهته عن الكذب ، ما علمتم فى طبعه الكريم انحرافا ، ولا وجدتم فى خلقه الشريف عوجة ، فكيف يكون الذى تشهدون بأمانته وصدقه طول حياته متهما بالكذب فيما دعاكم إليه وأراكم اليوم عليه ! .

وقد ذهب فى الشطر الثانى من البيت مذهب المثل ، وفى البيت الطباق .

(٦٨) الخلق : بفتح الخاء وسكون اللام الخلقة — والخلق بضم الخاء : السجيّة .
والبيت موصول معناه بما قبله .

يقول : لا موضع لإنكاركم عليه أن يكون نبياً مرسلا ، وقد قال لكم هذا وهو الصادق فيكم المصدوق من قديم الزمان عندكم . وإذا رجعتم إلى مزاياه فى نفسه لا تجدون كذلك محلا لإنكاركم عليه دعوته ، فإذا كان أمر الرسالة لا يتسق للناس إلا بحسن الصور ، وكمال الخلق ، فقد كان رسول الله ﷺ أوضح من البدور وأجمل — وهى أبهى الأشياء وأجملها — وإذا كان ذلك يرجع إلى كرم الخُلُق وعلو السجايا فقد فاق ﷺ الأنبياء ، وهم أكرم الناس خلقا وأشرفهم شيمة .

أما خلقه وحسن صورته : فكان ﷺ أزهر اللون ، أدعج ، أكحل ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أبلج ، أزجّ ، أقنى ، أفلج ، مُدوَّر الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية ، واسع الصّدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، عبْل العضدين والذراعين ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور المتجرَّد ، ربعة القد ، ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردِّد ، إذا افترّ ضاحكا افترّ عن مثل سنا البرق ، وعن مثل حب الغمام .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل البائن ولا بالقصير ، ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ، وليس بالجعد القطط ، ولا بالسَّبط » الحديث .

وقال البراء رضى الله عنه : « ما رأيتُ من ذى لمة فى حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ » .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ : كأن الشمس تجرى فى وجهه » .

وأما خُلُقه ﷺ : فقد حباه الله تعالى من كمال الغريزة وسلامة الطبع ووفور العقل ووثاقة الحلم وعلو النفس ولطف الحسّ بما لم يحبُ مخلوقاً قبله ولا بعده . وتولاه من تأديبه وطبعه على كرائم الخلال بما لم يوفَّق إليه مخلوق غيره ، وناهيك بمن يكون ربه مؤدبه ومهذبه . قال ﷺ « أدّبنى ربى فأحسنَ تأديبى » .

وسيرد لك إن شاء الله تعالى تفصيل بعض شمائله ﷺ بحسب ما يشير الشاعر إلى إلى شىء منها . وما عسى أن يقول فيه المخلوق بعد ما قال له الخالق « وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » .

يا مصطفى من قبل نشأة آدم   والكون لم تفتح له أغلاقُ
أيرُوم مخلوق ثناك بعد ما   أثنى على أخلاقك الخلّاقُ

وفى البيت اللفّ والنشر .

وقال صاحب البردة فى هذا المعنى :

فاق النبيين فى خَلقٍ وفى خُلُقٍ   ولمْ يدانوه فى علمٍ ولا كرمِ

جاءَ النَّبِيُّونَ بالآياتِ فانصَرَمَتْ ٭ وَجِئتَنا بِحَكِيمٍ غيرِ مُنصَرِمِ (٦٩)
آياتُه كلما طالَ المدَى جُدُدٌ ٭ يَزِينُهُنَّ جَلالُ العِتقِ والقِدَمِ (٧٠)

(٦٩) انصرمت: انقطعت — ومنصرم: منقطع — الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم فى مواضع منه.

المعنى — من الدلائل على أنه ﷺ فاق الأنبياء وفضلهم — كما ذكر فى البيت السابق — أن ما جاؤوا به من المعجزات والآيات قد مضى على أثرهم وانقطع بانقطاع مدتهم، وأن ما جاء به نبينا ﷺ من القرآن الكريم والذكر الحكيم باق على طول الأزمان والأدهار تجرى عليه العصور، وتتغير عليه الأمم، وهو قائم الحجة، واضح المحجة، يُكلَّفُ الناسُ على مقتضى حكمه، ويُطالَبون بالتعبد بتلاوته فى كل زمان وفى كل مكان.

(٧٠) جُدُد: جمع جديد كسرر وسرير.

آيات الكتاب الحكيم قديمة لأنها كلام الله القديم، ولكن قدمها وسبقها على الحوادث لا يجمد بها عن الاندماج لأحكام الوقائع والنزول على جزئيات المسائل، فمهما طال الزمان وتجددت الحوادث، ظهر لنا من كتاب الله تعالى حكم يناسبها ويتفق مع مصالح العباد فيها. فهى جديدة باعتبار تنزيلها على أحكام الوقائع الجديدة أو جديدة باعتبار ظهور حكم لنا فيها جديدة بعد أن كانت خافية عن أنظار العباد.

وكيف لا تكون كذلك وقد أنزلها الله حكماً وهدى للناس عامة حتى آخر الزمان: تقدر لهم فيها الصالح، وتجعل لهم فى اتباعها العز والمنعة مهما تغيرت الحوادث وتقلبت الأمور! «تنزيلٌ من حكيم حميد».

ومما يتصل بهذا المعنى قول القاضى عياض رحمه الله: «وقد عدَّ جماعة من الأئمة ومقلدى الأمة فى إعجاز القرآن وجوها كثيرة.. منها: أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجُّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة. لا يزال غضًّا طريًّا وغيره من الكلام ولو بلغ فى الحسن والبلاغة مبلغه يُمل مع الترديد، ويعادَى إذا أعيد، وكتابنا يُستلذ فى الخلوات، ويؤنس بتلاوته فى الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لحوناً وطرقاً يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها. ولهذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه «لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عبره، ولا تفنى عجائبه».

وفى البيت طباق.

وقال صاحب البردة فى هذا المعنى:

آيات حق من الرحمن محدثة ٭ قديمة صفة الموصوف بالقدم

قال القسطلانى شارحه. (محدثة) باعتبار الحروف والأصوات.

يكادُ فى لفظةٍ منه مُشرَّفةٍ ٭ يُوصيكَ بالحقِّ والتقوى وبالرَّحِمِ (٧١)
يا أفصحَ الناطقينَ الضادَ قاطبةً ٭ حديثُكَ الشهدُ عند الذائقِ الفَهِمِ (٧٢)

(٧١) التاء فى قوله لفظة: تاء الوحدة.

إذا أراد (باللفظة) حقيقتها فالقول فى بلاغة الكتاب وبراعة أسلوبه ودقة نظمه وانسجام لفظه وكمال إيجازه، حتى إنه ليتسق للفظة فيه من المعانى ما يتفرق فى الجمل الكثيرة من كلام غيره. وذلك لكمال الارتباط بين كلماته، وأخذ كل لفظة من ألفاظه الشريفة بحجزة التى تليها، حتى إذا وقعت لها طائفة من المعانى كانت كأنها واقعة فى اللفظة الواحدة لحسن التئام ألفاظه ولطف اتصال بعضها ببعض. وإذا أراد باللفظة الجملة كان القول فى احتشاد آى الكتاب الحكيم بالحكمة والموعظة الحسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإكثار من توصية الناس بما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

والمعنى على هذا أنه يكاد فى كل جملة من جمله الشريفة يوصيك بالحق وتقوى الله والبر بذوى الأرحام.

رُوِى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبى ﷺ ﴿إنَّ الله يأمرُ بالعدل والإحسانِ وإيتاءِ ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكَّرون﴾ قال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر.

(٧٢) الناطقون الضاد: العرب، لأن «الضاد» لا تتم إلا فى لغتهم.

الشُّهْد : العسل فى شمعه — والذائق : صاحب الذوق فى فهم الكلام والخبرة بمواضعه — الفهم : صيغة مبالغة من الفَهْم .

شبه حديثه ﷺ بالشهد فى حلاوته وعذوبته وانبساط النفس له ، أو لفائدته وشفائه لأدواء النفوس كما يشفى العسل من أدواء الجسوم . قال تعالى ﴿ فيه شفاءٌ للناس ﴾ وقال الشاعر :

وإنَّ لسانى شُهْدة يُشتفى بها   وهوَّ على من صبَّه الله علقمُ

وإنا ناقلون إليك بعض ما قال الشفاء فى فصاحة لسانه وبراعة منطقه ؛ قال : « كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يُجهل . سلاسة طبع ، وبراعة منزَع ، وإيجاز مَقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلُّف ، أوتى جوامع الكلم ، وخصّ ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله ، من تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه » .

وقال بعد كلام طويل : « وأما كلامه المعتاد ، وفصاحته المعلومة ، وجوامع كلمه ، وحكمه المأثورة ، فقد ألف الناس فيها الدواوين وجمعت فى ألفاظها ومعانيها الكتب . ومنها ما لا يوازى فصاحةً ولا يبارى بلاغة كقوله :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يدٌ على من سواهم » . وقوله « الناس كأسنان المشط » و « المرء مع من أحب » و « لا خير فى صحبة من لا يرى لك ما ترى له » و « الناس معادن » و « ما هلك امرؤ عرف قدره » و « المستشار مؤتمن » .

وقال بعد ذلك : وقد قال له أصحابه « ما رأينا الذى هو أفصح منك » فقال « وما يمنعنى ؟ وإنما أنزل القرآن بلسانى لسان عربى مبين » . وقال مرة أخرى : « بيد أنّى من قريش ونشأت فى بنى سعد » فجمع له بذلك ﷺ قوة عارضة البادية وجزالتها ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها ، إلى التأييد الإلهىّ الذى مدده الوحى الذى لا يحيط بعلمه بشرى . وقالت أم مَعْبد فى وصفها له : « حلو المنطق ، فصلٌ ، لا نزْرٌ ولا هذْر ، كأن منطقه خرزاتٌ نُظمن » .

حَلَّيْتَ مِن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِهِ ۞ في كُلِّ مُنْتَثِرٍ في حُسْنِ مُنْتَظِمِ (٧٣)

(٧٣) عطل : يقال عطلت المرأة عطلا إذا لم يكن عليها حلى .

المعنى أن البيان قد ازدان بحديثه ﷺ كما تزدان الحسناء بعد العطل بحليها وزخرفها ، وتزداد بزينتها ملاحتها وحسنها . وقد تنزه ﷺ عن قول الشعر وباطله ووساوسه وخيالاته وما يجرى فى أكثر فنونه مما لا ينبغى للنبي الكريم : ﴿ وما علّمناه الشعرَ وما ينبغى له ﴾ بل كان قوله منثورا — إلا ما جرى على لسانه الشريف رواية من شعر شاعر — جاريا بحكمة ، أو آخذا بموعظة ، أو مقررا لحكم من أحكام الدين . ومع هذا فقد كان لحديثه المنثور ما للشعر المنظوم من روعة وخفة على السمع ، ولطف موضعه من النفس ، وهشاشة القلب له ، وانجذاب الطبع إليه .

وفى البيت تشبيه البيان بالمرأة الحسناء تشبيهاً مُضمرا فى النفس ، وأثبت لها « الجيد » على سبيل الاستعارة المكنيّة ، و « التحلية » ترشيح ، وفى كل من شطرى البيت طباق .

بِكُلِّ قَوْلٍ كَرِيمٍ أَنْتَ قَائِلُهُ ۞ تُحْيِي القُلُوبَ وَتُحْيِي مَيِّتَ الهِمَمِ (٧٤)
سَرَتْ بَشَائِرُ بِالهَادِي وَمَوْلِدِهِ ۞ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ مَسْرَى النُّورِ فِي الظُّلَمِ (٧٥)

(٧٤) معنى إحياء قوله القلوب : تأثرها بمواعظه ﷺ وتنبهها من غفلتها ، وتدبرها ما ينفعها وما يضرها . وإحياؤه الهمم إيجادها وإنهاضها لعظائم الأمور . وقد وصل قوله ﷺ هم أصحابه وتابعيهم بالجوزاء ، فدانت لهم الممالك ، وذلت لهم الصعاب ، ويُسّر لهم فى اليسير من الزمان ما تعذّر على الأزمان والأحقاب — وكريم : بمعنى النفيس النافع ، وهو صفة أولى لازمة لقول . وجملة « أنت قائله » صفة ثانية من الوصف بالجملة بعد الوصف بالمفرد ، وهو جائز كعكسه ، نحو قوله تعالى ﴿ وهذا

كتابٌ أنزلناه مباركٌ ﴾ .

وإحياء القلوب مجاز عن تأثرها ، وموت الهمم مجاز عن فقدانها . وأقواله المأثورة فى هذا الباب لا يكاد يأخذها العدّ ويبلغها الإحصاء .

وفى الشطر الثانى من البيت الطباق .

(٧٥) نسبة السريان للبشائر مجاز عقلى ، أو فى الكلام استعارة مكنية بتشبيه البشائر بالسارى ، وإثبات السرى لها تخييل . وقد رُوى فى غير موطن أن البشرى بمولده ﷺ شاعت فى الأرض والسماء ، واتصلت بجميع الكائنات . وسيرد عليك شىء من آثرها فى البيتين الآتيين .

وفى الشطر الثانى الطباق بين قوله فى « الشرق » و « الغرب » ، وقوله « النور » و « الظلم » .

تَخَطَّفَتْ مُهَجَ الطَّاغِينَ مِنْ عَرَبٍ * وطَيَّرَتْ أَنْفُسَ الْبَاغِينَ مِنْ عَجَمِ (٧٦)
رِيعَتْ لَهَا شُرُفُ الإِيوَانِ فَانْصَدَعَتْ * مِنْ صَدْمَةِ الْحَقِّ لَا مِنْ صَدْمَةِ الْقُدُمِ (٧٧)

(٧٦) مُهَج : جمع مهجة وهى دم القلب .

المعنى — إن العلامات التى دلت على مولده ﷺ قد روّعت أهل السطوة والظلم من عرب وعجم ، واعتصرت قلوبهم ، وأطارت نفوسهم فرقا . وذلك لما علموا من اقتراب الساعة التى يُسلكون فيها عن الناس ، وتُغلّ فيها أيديهم عن ظلم العباد ويحاسبون على ما أسرفوا ، ويؤخذون بما اقترفوا ، وإن على الباغى تدور الدوائر .

وفى البيت طباق .

(٧٧) ريعت : ذعرت وخافت — شُرُف : جمع شرفة وهى ما يوضع على أعالى القصور ونحوها — القدم : جمع قَدوم .

المعنى — إن شُرف الإيوان وهو مثوى سلطان الأكاسرة ومظهر سطوتهم وبأسهم قد ارتجت وهوت ليلة مولده ﷺ ، لم تعمل فيها المعاول ، ولم يهدمها القدم ، بل تداعت وخرّت من صدمة الحق المبعوث به ﷺ للباطل الذى فيه أهلها . ﴿ بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ .

روى البيهقى وأبو نعيم والخرائطى وابن عساكر خبر ارتجاج الإيوان وسقوط أربع عشرة شرافة منه . وقال ابن حجر فى شرح الهمزية « ومن عجائب ولادته ﷺ انهدام إيوان كسرى أى انشقاقه انشقاقا بينا آل به إلى خرابه » ولولاه ما تداعى البناء مع ما هو عليه من العظم والإحكام الذى يقضى به أن لا تهدمه إلا نفخة الصور . فإذا هو قد تحرك وسقط منه أربع عشرة شرافة للدلالة على نبوته ، وأن لا عز يبقى لأحد مع عزه . وسرّ كونها أربع عشرة أنه لم يبق من ملوكهم إلا أربعة عشر ، فملك عشرة فى أربع سنين وأربعة إلى زمن عثمان ، وبذلك انتهى ملكهم .

أَتَيْتَ وَالنَّاسُ فَوْضَى لَا تَمُرُّ بِهِمْ * إِلَّا عَلَى صَنَمٍ قَدْ هَامَ فِى صَنَمِ (٧٨)
وَالأَرْضُ مَمْلُوءَةٌ جَوْرًا مُسَخَّرَةٌ * لِكُلِّ طَاغِيَةٍ فِى الْخَلْقِ مُحْتَكِمِ (٧٩)

(٧٨) هام : يهيم هياما . والهيام شدة الوجد .

المعنى — أنه بُعث عليه الصلاة والسلام والناس فى جاهليتهم . الجهلاء لا يؤخذون بنظام ولا يجرون فى أمورهم على حكم معقول ، بل قد فسدت فطرهم والتاثت عقولهم إلى حد العكوف على الأصنام واتخاذها للعبادة ، واستكفائها الضر والأذى . ومن كان هذا شأنه فى ضعف العقل وجمود الفكر وعدم التمييز بين النافع والضارّ كان هو والحجر الذى يعبد بمنزلة سواء . فذلك قوله « إلا على صنم قد هام فى صنم » .

(٧٩) التاء فى قوله طاغية للمبالغة . أى شديد الطغيان .

كان الناس فى كل أرض كأنهم فى دار حرب يستعر لهيبها من القتل والفتك والسلب والنهب ، دع وأد البنات وهتك الحرُمات . وكان كل ملك طاغية فى قومه ، ظلاما فى حكمه ، يأمر ولا رادّ لأمره ، ويقضى بالجور ولا دافع لقضائه ، اللهم إلا أفرادا قلائل يسنحون فى عرض التاريخ سنوحا ، فيخطر عدلهم فى خلال الظلمات المتكاثفة « كخطرة البرق بدا ثم اضمحل » .

مُسَيْطِرُ الفُرْسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ ٭ وَقَيْصَرُ الرُّومِ مِنْ كِبْرٍ أَصَمُّ عَمِي (٨٠)
يُعَذِّبَانِ عِبَادَ اللهِ فِي شُبَهٍ ٭ وَيَذْبَحَانِ كَمَا ضَحَّيْتَ بِالغَنَمِ (٨١)

---

(٨٠) يبغى : يبغى بغياً والبغى التعدى .

كذلك كانت الحال فى دولة الفرس عند مبعثه عليه الصلاة والسلام حيث كانت الفوضى فى بيت الملك والظلم فى الرعية بيد القائم للتسلط عليه . وكانت الحال فى دولة الروم أدهى وأمرّ فقد كانت قياصرتهم أهل غطرسة وجبروت ، قد أبطرتهم النعمة ، وأعماهم الاختيال ، وأصمتهم الكبرياء ، فلا يرون لمخلوق حقاً عليهم ، بل يعتقدون أن الخلق مسخر لأمرهم وأن الناس ما كانوا إلا ليجرى عليهم عسفهم وظلمهم .

وإنما اختص بالذكر دولتى فارس والروم لأنهما كانتا أعرف دول الأرض وأقواها فى ذلك الحين ، ولأنهما كانتا أشد من غيرهما علاقة وأقرب جواراً لجزيرة العرب التى بعث فيها الرسول الأكرم ﷺ .

(٨١) فصل فى هذا البيت وجوه الظلم الذى كان منتشراً فى ذلك الزمان ، وأن تعذيب الناس كان يجرى على الشبه والأوهام ، وأن أرواح العباد كانت تزهق بالوشايات والسعايات ، وينطلق سيف الظالم بالقتل فى الناس لأوهن الأسباب . كما تنطلق سكين القصاب بالذبح فى الغنم يوم التضحية .

والجار والمجرور فى قوله « كما ضحيت » صفة لمفعول مطلق محذوف أى ذبحا كتضحيتك الغنم ، و « ما » مصدرية .

وَالخَلْقُ يَفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأَضْعَفِهِمْ ٭ كَاللَّيْثِ بِالبَهْمِ أَوْ كَالحُوتِ بِالبَلَمِ (٨٢)
أَسْرَى بِكَ اللهُ لَيْلًا إِذْ مَلَائِكُهُ ٭ وَالرُّسْلُ فِي المَسْجِدِ الأَقْصَى عَلَى قَدَمِ (٨٣)

---

(٨٢) البهم : جمع بهمة وهى ولد الضأن والمعز — البلم : صغار السمك .

متى أطلق الناس ولم يكفكفهم وازع من دين أو سلطان غلبت عليهم فطرتهم الحيوانية ، فسطا كبيرهم بصغيرهم ، وفتك قويهم بضعيفهم ، كما يفترس الليث ضعاف الحيوان ، وكما تأكل كبار السمك صغارها .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ٭ ذا عفة فلعلة لا يظلم

(٨٣) المسجد الأقصى : بيت المقدس — على قدم : قائمون محتشدون .

حكاية الإسراء جاء بها الكتاب العزيز . قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

قال العلماء : يتعين أن يكون الإسراء إلى المسجد الأقصى يقظة إذ لو كان رؤيا منامية لما امتنّ الله على نبيه بتخصيصه بذلك ، ولما كذبته قريش وسألته عن صفات بيت المقدس ، ولما أجابهم بعدُ إلى ما سألوا .

روى البخارى أن النبى ﷺ قال : « لما كذبنى قريش قمت فى الحجر ، فجلى الله لى بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه » والرائى فى المنام لا يعاجَز بمثل ذلك ، ولا يتكلف هو مثل هذا القدر فى إثبات رؤياه .

أما الأحاديث الصحيحة الواردة فى تفصيل قصة الإسراء فكثيرة لا يجاوزها الشك ولا يطوف بها فى جملتها الريب .

قال القاضى عياض رحمه الله : الحق الذى عليه السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل .

لَمَّا خَطَرْتَ بِهِ التَفُّوا بِسَيِّدِهِمْ ٭ كَالشُّهْبِ بِالبَدْرِ أَوْ كَالجُنْدِ بِالعَلَمِ (٨٤)
صَلَّى وَرَاءَكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ ٭ وَمَنْ يَفُزْ بِحَبِيبِ اللهِ يَأْتَمِمِ (٨٥)

---

(٨٤) خطر : مشى — وقد التفت من الخطاب إلى الغيبة فى قوله (بسيدهم) تعظيما لشأنه وإظهار سيادته عليهم صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين — الجار والمجرور فى قوله (كالشهب) و (كالجند) صفة لمفعول مطلق محذوف — الشهب : جمع شهاب

وهو فى الأصل شعلة النار الساطعة والمراد بها النجوم — العلم: راية الحرب.

(٨٥) ذى خطر: ذى قدر ومنزلة — وكلهم كذلك صلوات الله وتسليماته عليهم — والجار والمجرور فى قوله بحبيب الله متعلق بقوله (يأتم والأصل ومن يأتم بحبيب الله يفز ولكنه قلب للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز.

وقد وردت الأحاديث بخبر هذه الصلاة. منها ما رواه مسلم عن أم هانىء عنه ﷺ قال: «نُشر لى رهط من الأنبياء، منهم ابراهيم وموسى وعيسى، ثم حانت الصلاة فأممتهم» ومنها ما رواه الحاكم والبزار أنه صلى ببيت المقدس مع الملائكة وأنه عليه السلام أتى بأرواح الأنبياء فأثنوا على الله.

جُبْتَ السَّمواتِ أوْ ما فَوْقَهُنَّ بِهِمْ * عَلَى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُّجُمِ (٨٦)
رَكُوبَةً لَكَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ * لا فى الجِيادِ ولا فى الأَيْنُقِ الرُّسُمِ (٨٧)

(٨٦) بهم: أى بملابسة بعضهم فيها فإنه ورد أنه رأى بعضهم فى السموات لا كما هو المتبادر من قوله انهم صاحبوه حين جاب السموات — ويريد بقوله (منوّرة درّية اللجم) البراق. والوارد أنه ﷺ ركب البراق إلى بيت المقدس، أما عروجه إلى السماء فلم يكن على البراق على الصحيح.

(٨٧) من: فى قوله «من عز ومن شرف» للتعليل أى لأجل عزك وشرفك — الأينق الرُّسُم: النوق الشديدة الوطء لقوتها حتى كأنها ترسم فى الأرض بمشيها آثارها ظاهرة — والرُّسُم: واحدها رسُوم — الجياد: جمع جواد وهو الفرس الرائع البيّن الجودة.

المعنى — إن هذه المطية التى أقلتك يومئذ لا نظير لها فى الجياد ولا مثيل لها بين النوق، وليست من تلك المطايا التى يعهدها الناس، بل هى شىء اختصك الله به إعزازاً لأمرك، وتشريفاً لقدرك، وهو البراق.

والأحاديث الواردة فى صفته كثيرة. منها ما رواه مسلم عن أنس بن مالك أن

رسول الله ﷺ قال «أُتيتُ بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه. قال: فركبته حتى أتيتُ بيت المقدس» الحديث.

مَشِيئَةُ الخَالِقِ البَارِى وَصَنْعَتُهُ * وَقُدْرَةُ اللهِ فَوْقَ الشَّكِّ وَالتُّهَمِ (٨٨)
حَتَّى بَلَغْتَ سَمَاءً لا يُطَارُ لَهَا * عَلَى جَنَاحٍ ولا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ (٨٩)
وَقِيلَ كُلُّ نَبِىٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ * وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا العَرْشُ فَاسْتَلِمِ (٩٠)

(٨٨) لما ذكر البراق وأنه ليس من جنس هذه الدواب التى يمتطيها الناس ويتداولون عليها، وأن له من السرعة ما لا يجرى الخاطر بمثله، خاف أن يسرع فى ذلك الشك إلى مراض القلوب رقاق العقائد الذين يحسبون أن إرادة الله لا تنزل إلا على حكم أوهامهم وتصوراتهم، وأن قدرته تعالى لا تجوز ما يجرى كل يوم بين أيديهم وما يتردد على أنظارهم. فاستدرك فى البيت بأن ذلك كان بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يخرج عنهما شىء من الممكنات، لا يصيب ذلك شك ولا تناله تهمة.

(٨٩) قد علمت أن عروجه ﷺ إلى السماء لم يكن على البراق كما هو ظاهر البيت، والوارد فى الصحيح أن صعوده كان على المعراج.

(٩٠) وقيل: أى بلسان الحال — كل نبى: من الذين فى السموات — عند رتبته: أى منزله فى السماء التى هو فيها — ويا محمد: بلسان الحال أيضاً — هذا العرش فاستلم: لم يرد فى الصحيح بلوغه ﷺ العرش، ولعل استلامه هنا كناية عن مزيد القرب من رب العزة لأن من بلغ عرش الملك فقد دنا منه دنواً عظيماً.

خَطَطْتَ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا عُلُومَهُمَا * يَاقَارِئَ اللَّوحِ بَلْ يَالَامِسَ القَلَمِ (٩١)
أَحَطْتَ بَيْنَهُمَا بِالسِّرِّ وَانْكَشَفَتْ * لَكَ الخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكَمِ (٩٢)
وَضَاعَفَ القُرْبُ مَاقُلِّدْتَ مِنْ مِنَنٍ * بِلَا عِدَادٍ وَمَا طُوِّقْتَ مِنْ نِعَمِ (٩٣)
سَلْ عُصْبَةَ الشِّرْكِ حَوْلَ الغَارِ سَائِمَةً * لَوْلَا مُطَارَدَةُ المُخْتَارِ لَمْ تَسُمِ (٩٤)

(٩١) خطه علوم الدين والدنيا : كناية عن تعليمها الناس وبثّها فيهم — وقراءة اللوح ولمس القلم : كناية عن إطلاع الله له على ما أطلعه عليه من الغيوب . وقد ورد أنه ﷺ في تلك الليلة ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام .

(٩٢) عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « علمني ربي ليلة الإسراء علوما شتى ، فعلم أخذ عليّ كتمانه ، وعلم خيّرني فيه ، وعلم أمرني بتبليغه » .

(٩٣) يجوز أن يكون (القربُ) فاعلا لضاعف ، و(ما) وما بعدها مفعولا به ، والمعنى أن قربه من الله تعالى قد أربى على جميع ما وليه ﷺ من النعم التي لا يدركها العدّ ، فكانت بإضافة القرب إليها أضعاف ما كانت قبله . ويجوز أن يكون مفعولا والفاعل (ما) وما بعدها ، والمعنى أن ما تجلى الله تعالى به عليه من النعم التي لا تعد وأولاه من الفضائل التي لا تحصى قد زاد قربه ، لأنه كقرب على قرب ، والأول أولى .

(٩٤) عصبة الشرك : أي عصبة أهل الشرك الذين ذهبوا يطلبونه ﷺ يوم مهاجره .

الغار : كالثقب بجبل ثور أسفل مكة — سائمة : راعية ، ومنه قوله ﷺ : « في سائمة الغنم الزكاة » . وسائمة هنا بمعنى الباحثة المتقصية عنه عليه الصلاة والسلام . وذلك أنه لما خرج من مكة يريد الهجرة إلى المدينة ، واشتد القوم في طلبه ، وكانوا قد بيتوا النية على قتله ، توارى هو والصدّيق رضوان الله عليه في هذا الغار ، وأقبل القوم يلتمسونهما فيه ، فصرفهم الله بما سيرد عليك ذكره من الآيات البينات . وعصم الله رسوله من الناس .

هَلْ أَبْصَرُوا الأَثَرَ الوَضَّاءَ أَمْ سَمِعُوا * هَمْسَ التَّسَابِيحِ وَالقُرْآنَ مِنْ أَمَمِ (٩٥)
وَهَلْ تَمَثَّلَ نَسْجُ العَنْكَبُوتِ لَهُمْ * كَالغَابِ وَالحَائِمَاتُ الزُّغْبُ كَالرَّخَمِ (٩٦)

(٩٥) من أمم : من قرب .

المعنى — ما الذي أمسكهم عن الدخول إليهما في الغار ؟ هل أبصروا أثر النبوة الوضاء فدخلتهم من ذلك الهيبة ؟ أم سمعوا تسبيحه ﷺ في جوف الغار وقراءته القرآن فوقعت لهم منه روعة ، وأدركتهم له رقة ؟

(٩٦) الغاب : معنى أنه الشجر الكثير المتكاثف — الحائمات الزغب : الحمام — الرخم : جمع رخمة وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط بالسواد والبياض .

المعنى — ما الذي منعهم من النفوذ إلى الغار هل خيل إليهم أن ما تهدل على فمه من العنكبوت — ذلك النسج الرقيق الواهن — كان غابا كثيفا منيعا لا يُنال ما وراءه ، خافوا التغشي فيه ، وأن ذلك الحمام الوادع على مجازه كان رخما يتخطفهم وينقض بهم في جو السماء أو يهوى بهم في مكان سحيق ؟

في مسند البزار : أن الله عز وجل أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار ، وأرسل حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأن ذلك مما صدّ المشركين .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : ولما كان ليلة بات النبي ﷺ في الغار أمر الله تعالى شجرة فنبتت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على قدر أربعين ذراعا ، معهم قسيُّهم وعصيهم ، تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار ، فقال لأصحابه : ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، وقال رجل آخر : الغار ، فقال أمية بن خلف : ما أربكم فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد ؟! .

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم * كباطل من جلال الحق منهزم (٩٧)

لولا يد الله بالجارين ما سلما * وعينه حول ركن الدين لم يقم (٩٨)
تواريا بجناح الله واستترا * ومن يضم جناح الله لا يضم (٩٩)

---

(٩٧) شبه إدبارهم ونكوصهم على أعقابهم خائبين بمهزع الباطل وإدحاضه ، قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ .

ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجاز عقلى ، واللاعن من فيها من المسلمين والملائكة ، أو المراد وجوه أهلها أى أعيانهم وأفاضلهم .

(٩٨) الجاران : الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه — والمراد (باليد) النعمة — وعينه : عنايته وحرف الشرط مقدر فى الجملة الثانية .

المعنى — لم يكن مانعهما العنكبوت ولا صادًّا عنهما الحمام بل هى عصمة الله تعالى لنبيه : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ . وحفظه إياه وما جرى فى سابق علمه من سلامة الرسول ﷺ وبقائه حتى يقيم به عمود الدين وينشر رسالته فى العالمين .

قال تعالى ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ الآية .

روى البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : « كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، قلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا ، قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! » .

وقال صاحب البردة :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الأطم

(٩٩) جناح الله : لطفه وستره — يضم : يضمه — يضم : يظلم .

تجوز بالجناح عن اللطف والستر لأنهما لازمان له كما يضم الطائر جناحه على فرخه .

وفى البيت جناس .

يا أحمد الخير لى جاه بتسميتى * وكيف لا يتسامى بالرسول سمى (١٠٠)
المادحون وأرباب الهوى تبع * لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم (١٠١)

---

(١٠٠) من أسمائه ﷺ « أحمد » ، وقد سمى الشاعر به تيمنا باسم الرسول الأكرم — يتسامى : يتعالى .

والاستفهام فى البيت إنكارى .

المعنى — إنه من حق أن أفخر وأتعالى بالانتساب إلى اسم رسول الله ﷺ ، فقد أوجبت لى بذلك الحرمة ، وثبتت لى منه الذمة .

وقد وردت الأخبار فى فضل التسمى باسمه ﷺ .

وقال صاحب البردة فى هذا المعنى :

فإن لى ذمة منه بتسميتى   محمداً وهو أوفى الخلق بالذمم

(١٠١) تبع : أخبر بالمصدر مبالغة وأفرده لأنه يستوى فيه الواحد والجمع ، أو على تقدير مضاف أى ذووا تبع أى مقتدون به مقتفون على أثره .

ذو القدم : التقدم والمنزلة .

صاحب البردة : — على ما فى فوات الوفيات — هو الإمام محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى البوصيرى . كان أحد أبويه من « أبو صير » والآخر من « دلاص » ، فركبت له نسبة منهما وقيل « الدلاصيرى » لكنه اشتهر « بالبوصيرى » .

كان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ، وباشر الشرقية « ببلبيس » وله تلك القصيدة المشهورة التى نظمها فى مباشرى الشرقية ، وأولها :

تفقدت طوائف المستخدَمينا   فلم أرَ فيهم رجلاً أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم   مع التجريب من عمرى سنينا
فكتّاب الشمال هم جميعاً   فلا صحبت شمالهمُ اليمينا

وهى طويلة . وشعره فى غاية الحسن واللطافة ، عذب الألفاظ ، منسجم التركيب ، وله فى مدائح النبي صلى الله عليه وسلم قصائد طنانة . وقصيدته المشهورة بالبردة .

قال البوصيرى : « كنت قد نظمت قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان اقترحه علىّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج أبطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه « البردة » ، فعملتها ، واستشفعت به إلى الله تعالى فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ، ودعوت ، وتوسلت . ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فمسح علىّ وجهى بيده المباركة ، وألقى علىّ بردة فانتبهت ، ووجدت فىّ نهضة ، فقمت وخرجت من بيتى ، ولم أكن أعلمتُ بذلك أحداً ، فلقينى بعض الفقراء فقال لى : أريد أن تعطينى القصيدة التى مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أيها ؟ فقال : التى أنشأتها فى مرضك ، وذكر أولها وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهى تنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل ، وأعجبته ، وألقى على من أنشدها بُردة . فأعطيته إياها . وذكر الفقير ذلك وشاع المنام . اهـ .

وتوفى عام ٦٩٥ هـ على ما ذكره السيد مرتضى الزبيدى .

هذا وقبره شهير بمدينة الاسكندرية يتصل به مسجد كبير يسمى بإسمه أضحى اليوم محتشداً بدروس العلم والدين بتوفيق الله تعالى وحسن عناية (سمو) الخديو عباس ، حيث قد دخل هذا المسجد فى جملة المساجد التى اتخذت معاهد للعلم فى مدينة الاسكندرية . تلك المعاهد التى أنشأها (الجناب العالى) الخديوى عباس حلمى الثانى إشاعة للعلم وإحياء للدين الكريم .

مديحهُ فيكَ حبٌّ خالصٌ وهوىً   وصادقُ الحبِّ يُملى صادقَ الكَلِمِ ١٠٢
اللهُ يَشهدُ أنّى لا أعارِضُهُ   مَن ذا يُعارضُ صَوبَ العارضِ العرِمِ ١٠٣
وإنما أنا بعضُ الغابطينَ ومَن   يغبطْ وليكَ لا يُذمَمْ ولا يُلِمِ ١٠٤
هذا مقامٌ مِنَ الرحمنِ مقتبسٌ   ترمى مهابتهُ سَحبانَ بالبكمِ ١٠٥
البدرُ دُونكَ فى حسنٍ وفى شرفٍ   والبحرُ دُونكَ فى خيرٍ وفى كرمِ ١٠٦

---

(١٠٢) مديحه حب : أى ناشىء من الحب أو ذو حب أى دالّ عليه .

المعنى — إن مديح البوصيرى لك لم يجر به غرض من أعراض الدنيا ، ولا هو يبتغى منه غرضاً من أغراضها ، بل كان ناشئا عن حب لك وإخلاص لم تشبه شائبة ، وإذا كان الأمر كذلك كان قوله منطبقاً على صفاتك ومزاياك التى نشأ عنها حبه لك وجرى بها مديحه فيك .

وقد ذهب فى الشطر الثانى من البيت مذهب المثل .

(١٠٣) الصوب : الانصباب ومجىء السماء بالمطر — العارض : السحاب المعترض فى الأفق — العرم : يريد المطر الشديد .

يريد أنه لم يطاول البوصيرى فى بردته أو يقصد مساماته والتبرز عليه فى بلاغة شعره ورقة نظمه ولطف منزعه ، وإن كان جاراه فى رويه وقافيته والغرض من نظم قصيدته ، وهو مدح المصطفى ﷺ .

وفى البيت جناس .

(١٠٤) الغابط : الذى يتمنى مثل ما للغير ، وليس هذا القدر بمذموم ، يُذمم : يُلم

(١٠٥) البكم : الخرس .

سحبان : هو سحبان وائل من بنى باهلة ، كان يضرب بفصاحته المثل ، روى أنه كان يقوم متوكئاً على عصاه ويتكلم ساعات متواليات فلا يتلعثم ولا يتنحنح =

ولا يخرج من معنى إلى معنى أو ينتقل فى فنون الكلام من فن إلى فن إلا كان ذلك أخفى من السر وأدق من السحر .

أدرك الإسلام وأسلم وبقى إلى زمن معاوية رحمه الله . ومن شعره :

لقد علم الحى اليمانون أننى   إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

المعنى — إن مدح الرسول ﷺ وذكر صفاته العالية وتعداد مناقبه الشريفة التى اختصه الله بها لا قبل للبشر ببلوغه ، حتى ولا سحبان الذى هو أفصح الناس وأقدرهم على القول ، بل لا بد من معونة الله فى ذلك وتسديده حتى يوفق العبدُ إلى بلوغ هذا المقام .

(١٠٦) البيت بمثابة التعليل للبيت الذى قبله . كأنه يقول كيف يستطيع المرء أن يوفيك ما أنت أهله من الثناء والحمد ، ويقدُر بقوله أوصافك الشريفة ونعوتك الكريمة . أليس البدر آخر ما يذهب إليه لتشبيه الوصف بالحسن والشرف ، وقد أوفيت عليه فى ذلك . والبحر أليس آخر ما ينتهى إليه لتشبيه الناعت بالجود والكرم ، فماذا يقول القائل وقد أربيت على البحر فى جودك وفى برّك وفى كرمك .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه : «ما سئل رسول الله ﷺ عن شىء فقال لا» .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : «كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى شهر رمضان ، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة» .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة .

وعنه رضى الله عنه : كان النبى ﷺ لا يدّخر شيئاً لغده . وروى أنه أعطى ﷺ غير واحد مائة من الإبل ، وأعطى صفوان مائة ثم مائة ثم مائة .

وروى أنه ﷺ أعطى العباس ما لم يطق حمله . وحُمل إليه ﷺ تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

والأخبار فى جوده ﷺ وبره وسماحه أكثر من أن يسعها هذا السفر .

شمُّ الجبالِ إذا طاوَلْتَها انخفضتْ   والأنجمُ الزُّهرُ ما واسمتَها تَسِمِ ١٠٧
والليثُ دونكَ بأساً عندَ وثبتهِ   إذا مشيتَ إلى شاكى السلاحِ كمِى ١٠٨

(١٠٧) واسمتها : يقال واسمه فى الحسن فوسمه غلبه فيه .

انخفاض الجبال كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه ، ويقال فى البيت ما قيل فى البيت السابق .

(١٠٨) الكمِى : لابس السلاح .

أبلغ ما يظهر بأس الشجاع وقوته إذا مشى إلى قرنه الشاكى سلاحه اللابس لبوس حربه ونضاله ، حيث تنخلع القلوب وتتخاذل بالمرء قوائمه ، ولكن رسول الله ﷺ فى هذه الحال كان أقوى بأساً من الأسد ساعة وثبه ، والأسد إذا وثب كان أشد ما يكون شدة وأقوى ما يكون قوة .

عن على رضى الله عنه قال : «إنا كنا إذا حمى البأس واحمرّت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو» .

وروى أن أبىّ بن خلف كان يقول للنبى ﷺ حين افتدى يوم بدر : «عندى فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها» فقال ﷺ «أنا أقتلك إن شاء الله» فلما رآه يوم أحد شد أبىّ على فرسه على رسول الله ﷺ ، فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال النبى ﷺ : هكذا (أى خلوا طريقه) ، وتناول الحربة من الحرث بن الصمّة ، فانتفض بها انتفاضة تطاير عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، ثم استقبله النبى ﷺ فطعنه فى عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه فرجع إلى قريش يقول «قتلنى محمد» وهم يقولون «لا بأس بك» فقال «لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم ، أليس قد قال أنا أقتلك ! والله لو بصق علىّ لقتلنى !» فمات بسرف فى قفول القوم إلى مكة .

عن البراء رضى الله عنه : وسأله رجل : أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ » قال «لكن رسول الله ﷺ لم يفرّ» ، ثم قال «لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان آخذ بلجامها والنبى ﷺ يقول أنا النبى لا كذب» وزاد غيره «أنا ابن عبد المطلب» قيل : فما رئى يومئذ أحد كان أشد منه .

تهفو إليك وإنْ أدميتَ حبتها   فى الحربِ أفئدةُ الأبطالِ والبهم[١٠٩]
محبــةُ اللهِ ألقاها وهيبتهُ   على ابنِ آمنةٍ فى كلِ مُصطدَمِ[١١٠]
كأن وجهك تحت النقعِ بدرُ دُجى   يضىءُ مُلتثماً أو غيرَ مُلتثمِ[١١١]
بدرٌ تطلّع فى بدرٍ فغُرّتهُ   كغُرّةِ النصرِ تجلو داجىَ الظُلَمِ[١١٢]

= وروى مسلم عن العباس رضى الله عنه قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين . وطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار وأنا آخذ بلجامها أكفها ، إرادة ألا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه .

وقد قيل إنه ما من شجاع إلاّ وقد أحصيت له فرّة وحفظت عنه جولة ، سواه ﷺ .

(١٠٩) تهفو : هفا الظبى فى المشى يهفو هفوا وهفوانا : أسرع وخف فيه ، والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه ﷺ — حبة القلب : سويداؤه — البهم : جمع بهمة وهو الشجاع الذى لا يهتدى فى أن يؤتى .

(١١٠) ابن آمنة : هى آمنة بنت وهب سيد بنى زهرة وأفضلهم نسباً وموضعاً ، ابن عبد مناف ، بن زهرة ، واسمه المغيرة بن حكيم بن مره . وقد تقدم لك أن حكيما ملتق نسب أبيه بنسب أمه ﷺ .

مصطدم : بمعنى المصدر أى الاصطدام ، أو الموضع أى موضع الاصطدام ، وهو ميدان الحرب .

(١١١) النّقع : غبار الحرب .

(١١٢) بدر : موضع بين الحرمين الشريفين أسفل وادى الصفراء ، هو من المدينة على ثمانية وعشرين فرسخاً ، وكان موسما من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كل عام . وفى « بدر » كانت الغزوة المشهورة التى دمغ الله فيها الشرك وأعز الإسلام . وذلك أن رسول الله ﷺ سمع بأبى سفيان مقبلا من الشام فى عير لقريش يطلبون مكة ، فندب المسلمين إليهم وقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا = إليها فلعل الله أن ينفلكموها » فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً . وكان أبو سفيان استقدم حين دنا من الحجاز ، وجعل يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً استنفر أصحابه لك ولعيرك ، فجدّ عند ذلك واستأجر رجلا ، فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتى قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم الخبر . فمضى الرجل سريعاً إلى مكة ، حتى إذا كان ببطن الوادى صرخ : « يا معشر قريش اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان بن حرب قد عرض لها محمــد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث » فنفروا أجمعوا من عيرهم . وكان عددهم إذ خرجوا من مكة ألفاً ومائتين وخمسين رجلا . ثم رجع منهم ثلاثمائة وقيل بقى ألف معهم مائة فرس كل فرس عليها درع عدا ما مع المشاة من الدروع وسبعمائة بعير . وخرج ﷺ لثلاث خلون من رمضان فى ثلثمائة وبضعة عشر رجــلا . فكان من المهاجرين نيف وستون ، ومن الأنصار مائتان ونيف وأربعون منهم فرسان . وقيل ثلاثة ، وقيل خمسة ، وست دروع ، وثمانية أسياف ، وسبعون بعيرا . وما كان خروجهم للقتال ، ولكن يبتغون التعرض للعير كما تقدم القول .

عن كعب بن مالك رضى الله عنه : « لم أتخلف عن رســول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتبْ أحدٌ تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد » .

قال تعالى : ﴿ ولوْ تواعدتمْ لاختلفتمْ فى الميعادِ ﴾

وارتحل رسول الله ﷺ حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزغباء إلى بدر يتجســان له الخبر عن أبى سفيان بن حرب . ثم ارتحل ﷺ وترك الصفراء يسارا وسلك ذات اليمين على واد يقال له ذفران . فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم ، فاستشار الناسَ وأخبرهم عن قريش ، وخيرهم بين العير والنفير . فكان لقاء العــير أحب إلى بعضهم لأنها أيسر شوكة وأوفر مغنما . قال تعالى : ﴿ وإذْ يعدُكمُ اللهُ إحدى الطائفتين أنها لكمْ وتودُّون أنَّ غيرَ ذاتِ الشوْكةِ تكونُ لكمْ ﴾ . فقام أبو بكر فقال =

فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن الأسود فقال : « لا نقول كما قال قوم موسى : « إذهبْ أنت وربك فقاتلا » ، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك » . فأشرق وجهه ﷺ وسرّه قوله . ثم قال ﷺ : « أشيروا علىّ أيها الناس » وإنما يريد الأنصار . فقال له سعد بن معاذ : « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ » قال « أجل » قال : « فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك العهود . فامض يا رسول الله لما أمرتَ » .

فارتحل رسول الله ﷺ من ذفران وسلك على ثنايا يقال لها الأصافر ، ثم انحط منها على بلد يقال لها الدبة . ثم نزل قريبا من بدر . فبعث على بن أبى طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم فى نفر من أصحابه إلى بدر يلتمسون له الخبر . فأصابوا راوية لقريش معها غلامان ، فانطلقوا بهما إلى النبى ﷺ ، فسألهما عن قريش فقالا : « هم وراء هذا الكثيب » فقال لهما « كم القوم ؟ » فقالا « لا ندرى » قال « كم ينحرون من الجزر كل يوم ؟ » قالا « يوما تسعا ويوما عشرا » قال « القوم ما بين التسعمائة والألف » قال لهما « ومن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا « عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البُختَرى بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل ابن خُويلد والحرث بن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدىّ والنضر بن الحرث وزمعة ابن الأسود وأبو جهل بن هشام وأميّة بن خلف » . فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه قريش قد ألقت إلى المؤمنين أفلاذ أكبادها » وفى رواية « هذه مكة قد رمت إليكم أفلاذ أكبادها » .

وكان بسبس بن عمرو وعدىّ بن أبى الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدرا فأناخا إلى تل قريب من الماء ، فسمعا جاريتين وهما يتلازمان على الماء وإحداهما تقول لصاحبتها : « إنما تأتى العير غدا أو بعد غد » . فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا . وأقبل أبو سفيان حين تقدم العير حتى ورد الماء وعرف خبر القوم فرجع إلى أصحابه سريعا ، فصرف وجه عيره عن الطريق وترك بدرا بيسارا ، ثم انطلق حتى أسرع وأقبلت قريش فنزلوا الجُحفة .

ولما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش : « إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا » فقال أبو جهل : « والله لا نرجع

حتى نَرِدَ بدرا فنقيم عليه ثلاثا وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فامضوا » .

ومضى المشركون حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادى ، ونزل المؤمنون بالعدوة الدنيا . قال تعالى « إذ أنتمْ بالعُدوة الدُّنيا وهمْ بالعُدوة القُصْوى والرَّكْبُ أسفلَ منكمْ » الآية . فأصاب المشركون أرضا سهلة ، وأصاب المسلمون كثيبا أعفر من الرمل تسوخ فيه أقدام الناس وحوافر الدواب ، واشتدت حاجتهم إلى الماء ليطهروا منه ويدفعوا به ما أدركهم من الظمأ ، ووسوس الشيطان إلى بعضهم فقال « تزعمون أنكم على الحق وأن فيكم رسول الله وأنكم أولياء الله وقد غلبكم عدوكم على الماء وأنتم عطاش محدثون ! » فبعث الله السماء فأصاب المسلمين ما لبّد لهم الأرض ولم يمنعهم السير ، وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه . فزالت وساوس الشيطان واطمأنت نفوس المسلمين وثبتت على الأرض أقدامهم . فذلك قوله تعالى : « ويُنزِّلُ عليكمْ منَ السَّماءِ ماءً ليُطهِّرَكُمْ به ويُذهِبَ عنكمْ رِجزَ الشيطانِ وليَرْبِطَ على قلوبِكمْ ويُثبِّتَ به الأقدامَ » .

وخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى حاذى ماء من مياه بدر فنزل به .

قيل إن الحباب بن المنذر بن الجموح قال : « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل : أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » قال « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال « يا رسول الله إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من مياه القوم فننزله ثم نغور ما سواه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون » فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى » ونهض بمن معه من الناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ، ثم أمر بالقُلُب فغورت وبنوا حوضا على القليب الذى نزل عليه .

وقال سعد بن معاذ رضى الله عنه : « ألا نبنى لك يا رسول الله عريشا تكون فيه وندع عندك ركائبك ثم نلقى عدونا ؟ فإن أعزنا الله وأظهرنا كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد حبا لك منهم » . فبُنى العريش فوق تل مشرف على

= موضع القتال. قال السمهودي: وهو معروف مكانه عند مسجد بدر بقرب العين.

ثم صف النبي ﷺ أصحابه صفوفاً، وأقبلت قريش، ورآها ﷺ فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني».

وبعثت قريش عمير بن وهب الجمحي — وأسلم بعد ذلك — قالوا له: «احزر لنا أصحاب محمد»، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال «ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصونه، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد»، فضرب في الوادي حتى أمعن فلم ير شيئاً، فرجع فقال «لم أر شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يَقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم». فقال حكيم بن حزام إلى قوله، ورأى عتبة بن ربيعة فتابعه على ذلك وأرسل إلى أبي جهل يسأله الرأي، فأبى إلا الحرب وأفسد على الناس رأيهم في ترك القتال، وبعث إلى عامر بن الحضرمي فأذّن في الناس بالقتال. خرج الأسود المخزومي — وكان شرساً سيء الخلق — فقال «أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه». فلما أهوى إلى الحوض تلقاه حمزة فأبان قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبر يمينه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض. وهو أول قتيل قتل يوم بدر من المشركين.

ثم خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد بن عتبة، ودعوا إلى المبارزة فخرج إليهم فتية من الأنصار فقالوا «من أنتم؟» قالوا «رهط من الأنصار» قالوا «ما لنا بكم حاجة». ثم نادى مناديهم «يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا» فأمر ﷺ الفتية بالرجوع، وأشار إلى عبيدة بن الحرث وحمزة وعلي رضي الله عنهم، نهضوا إليهم. قالوا «من أنتم؟» فقال عبيدة «عبيدة»، وقال حمزة «حمزة» وقال علي «علي» قالوا «نعم أكفاء كرام». فقتل علي الوليد، وقتل حمزة شيبة، واختلف عبيدة وعتبة بضربتين فأثخن كلّ صاحبه، فكرّ حمزة وعلي على عتبة بأسيافهما فذففا عليه فقتلاه، واحتملا صاحبهما عبيدة فجاءا به إلى أصحابه.

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض، وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن =

= لا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن أكثبكم القوم فانضحوهم بالنبل».

وروى البخاري عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم بدر: «إذا أكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم» (أكثبوكم) أي غشوكم واختلطوا بكم، (واستبقوا نبلكم) أي إذا كانوا على بعد فلا ترموهم فإن الرمي على هذه الحال يخطئ غالبا فلا يقع به الغرض من نكاية العدو، فإذا هم صانوها عن ذلك فقد استبقوها لوقت اقتراب العدو حيث يقع بها الغرض وتنتظم بها القلوب.

وخرج ﷺ يعدل صفوف أصحابه بقدح في يده، ثم رجع إلى العريش وناشد ربه إنجاز ما وعده من النصر بقوله تعالى: ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد». فأخذ أبو بكر بيده فقال «حسبك». فخرج وهو يقول «سيُهزم الجمعُ ويُولّون الدُبر».

ولما اصطف الناس للقتال كان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر ابن الخطاب، فقتله عامر بن الحضرمي بسهم، فكان أول قتيل قتل من المسلمين.

وصدق الله وعده وأعز جنده وأمدهم بالملائكة مردفين.

قال تعالى: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ الآية.

ورد في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان في العريش أخذته سِنة من النوم =

ثم استيقظ متبسما وقال : « أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل على ثنايه النقع » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال يوم بدر : هذا جبريل آخذ برأس فرسه » .

ثم خرج رسول الله ﷺ من العريش إلى الناس فحرضهم ونفّل كل امرىء ما أصاب ، وقال : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . فقال عمير بن الحمام ، وفى يده تمرات يأكلها : « أما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ! » ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد   إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد   وكل زاد عُرضة النفاد
غير التقى والبرّ والرشاد

وقتل أبو جهل ، قتله ابنا عفراء : معاذ ومعوذ الأنصاريان .

عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفتُّ ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه : « يا عم أرنى أبا جهل » فقلت « يا ابن أخى وما تصنع به ؟ » قال « عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه » ، فقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله قال : « فما سرنى أنى بين رجلين مكانهما . فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه ، وهما ابنا عفراء . »

وحمى البأس ، وقعقع النبل ، وتصافحت السيوف ، وتداكّت الصفوف على الصفوف وخرست الألسن ، ونطقت الأسنة ، وتصافت الأنفاس ، وجالت المنايا . وقال رسول الله ﷺ لأصحابه « شدوا » فكانت الهزيمة ، وقتل الله من قتل من صناديد قريش ، وأسر منهم من أسر ، ورسول الله ﷺ فى العريش وسعد بن معاذ قائم على بابه متوشحاً بسيفه فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ يخافون عليه كرة العدو . وأصاب المسلمون من المشركين مائة وأربعين : سبعين أسيراً وسبعين قتيلا .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « استقبل النبى ﷺ الكعبة فدعا على نفر من قريش : على شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبى جهل بن هشام فأشهد

ذُكرتَ باليتم فى القرآن تكرمةً   وقيمةُ اللؤلؤ المكنون فى اليُتمِ[١١٣]
الله قسّمَ بين النـــاس رزقهم   وأنتَ خُيِّرتَ فى الأرزاق والقِسَمِ[١١٤]
إن قلتَ فى الأمرِ لا أو قلتَ فيه نعمْ   فخيرةُ الله فى لا منكَ أو نعمِ[١١٥]

= بالله لقد رأيتهم صرعى قد غيرتهم الشمس ، وكان يوماً حاراً » .

وأمر ﷺ بأربعة وعشرين رجلا من صناديد قريش فقذفوا فى قليب من قُلُب بدر خبيث مخبث ، وختم الله بالفوز للمسلمين وأعلى كلمة الإسلام .

وكان الحسن البصرى رحمه الله يقول عند قراءة سورة الأنفال : « طوبى لجيش قائدهم رسول الله ، ومبارزهم عدو الله ، وجهادهم طاعة الله ، ومددهم ملائكة الله » . وكانت واقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

(١١٣) اليتم فى الناس : فقدان الأب ، وهو فى الأشياء : التفرد وعدم وجود نظائر لها . واللؤلؤة اليتيمة : التى لا نظير لها فى العقد — ذكرت باليتم فى القرآن : يشير إلى قوله تعالى ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ .

وحرك التاء إتباعا لحركة العين قبلها فى قوله (اليتم) . أو هو بالضم جمع صفة لموصوف محذوف ، أى إن قيمة اللآلىء المعتبرة فى اللآلىء اليتم .

ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل .

(١١٤) روى الترمذى عنه ﷺ : قال : « عرض علىّ ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، فقلت لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً » .

وقال صاحب البردة فى هذا المعنى :

وراودته الجبالُ الشم من ذهبٍ   عن نفسه فأراها أيما شممِ

وفى البيت جناس .

(١١٥) وكيف لا وقد أوتى ﷺ من كمال العقل وتمام الرشد وصحة الرأى وبعد النظر ونفوذه فى بواطن الأشياء وإصابته أعماقها ما لم يؤته مخلوق قبله ولا بعده . هذا =

أخوكَ عيسى دعا ميتاً فقام له   وأنت أحييتَ أجيالاً من الرمم[١١٦]
والجهلُ موتٌ فإن أوتيتَ معجزةً   فابعث من الجهل أو فابعث من الرَّجَم[١١٧]
قالوا غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعثوا   لقتل نفسٍ ولا جاءُوا لسفك دمِ[١١٨]

= إلى عصمة الله تعالى له وتوفيقه إياه وإلهامه الصواب في القول والعمل .

وحرك الميم في قوله (نعم) لضرورة القافية .

(١١٦) الأجيال : جمع جيل وهو الصنف من الناس — الرمم : جمع رمة وهي العظام البالية .

شبه الإيقاظ والتنبيه من الغفلة بالإحياء بجامع ما به النفعة ، واستعار الإحياء لإيقاظ القلوب وإخراجها من ظلمات الجهل على سبيل التبعية .

(١١٧) والجهل موت : كالترشيح للاستعارة في البيت السابق وهو تشبيه بليغ — أوتيت : خطاب لغير معيّن ، على حد قوله تعالى : « وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيت نعيما » ، أي يا من يتأتى أن تجرى على يديه معجزة . وهو كالاستدلال على البيت قبله ، وإلا فأمر الوحي قد ارتفع فلا تقع بعد رسول الله ﷺ معجزة : قال تعالى : « وخاتم النبيين » ، وقال ﷺ : « أنا العاقب فلا نبيّ بعدي » .

ويحتمل أن يكون خطاباً للرسول ﷺ لاستحضار صورته الكريمة كأنه حاضر فيخاطب — فالشرط في قوله : « فإن أوتيت » للتحقيق لا للشك نظير : ﴿ إنْ كنتم إياه تعبدون ﴾ ، و « إن كنت ابني فافعل كذا » .

فابعث من الجهل : أي أحي قلوباً ميتة من الشرك بسبب جهلها ، والأمر في قوله : « فابعث » على أن الخطاب للنبي ﷺ بمعنى الخبر . والمعنى : وإذ أعطيت معجزة فسواء إحياؤك القلوب أي إنقاذك لها من ظلمات الجهل والشرك وإحياؤك الموتى ، والأول أعظم وأنفع والرَّجَم : القبر .

(١١٨) يشير في البيت إلى مقالة بعض المتكلمين من أهل الأديان الأخرى من أن الحرب والقتل وسفك الدماء ليست من خلة الأنبياء الذين ما بعثوا في الناس إلا لتقرير سعادتهم ، وأي سعادة أبلغ من أن تُسفكَ دماؤهم وتُعصم نفوسهم ، =

جهلٌ وتضليلُ أحلامٍ وسفسطةٌ   فتحتَ بالسيف بعدَ الفتح بالقلمِ[١١٩]

= وعدّوا عليه غزواته ﷺ وأسرفوا في هذا الباب ، وألحوا على أسماع الناس بأمثال هذه الأقاويل حتى صوروا رسالته للجاهلين سيفاً مرهفاً يقطف دماً ويسيل مهجاً .

(١١٩) ردّ عليهم في هذا البيت بأن زعمهم ذاك إنما كان من الجهل المطبق بسيرته عليه الصلاة والسلام في غزواته ، وقلب الحقائق بغية اشتباه الناس في أمره ، وصرفهم عن استماع دعوته واتباع دينه . فإن أمره عليه الصلاة والسلام في غزواته لم يكن لينطبق على شيء مما زعموا . وكتب التواريخ والسير تشهد أنه لم يشهر على قوم حرباً إلا بعد أن استنفد باب الكلام ، وأدلى بالحجة وأقام البرهان ، وبعد أن أوذي في نفسه وأهله وعشيرته . وهو يصابر قومه رجاء سكونهم إلى الحق وإمساكهم عن التمادي في البغي ، وبعد أن لم يجد بداً من مقابلة السيف بالسيف . فإن القوم كانوا أهل طعان وضراب ، لا يسمعون للحجة إلا بصليل السيوف ، ولا ينصتون للحق إلا إذا روته لهم الأسنة .

عنها الحديثُ إذا هم حاولوا سمراً   والرِّزق منها إذا حلّوا أما ريتا

وما ظنك بقوم كان يتلى فيهم كتاب الله — وهو المعجزة الباقية على الدهور — حتى إذا لم يبق لهم منفذ من الرضوخ للحجة الناطقة أخذتهم العزة بالإثم ، وجعلوا أصابعهم في آذانهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً ، ﴿ وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

لم يبق طريق لنشر دعوة الله مع الشرك المتعنت الواقف في طريق الحق مجرّداً سيفه شاهراً رمحه إلا الدخول معه في ساحة النزال ، لينكشفَ عن وجه الدعوة ويكون الدين كله لله .

وقد أشار بقوله (فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم) إلى أن دعوته ﷺ لم تقم على أخذ الناس بأسباب القوة واضطرارهم إلى الدين بالسيف والرمح . كيف وأول ما نزل من كتاب الله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسانَ من علق اقرأ وربك الأكرمُ الذي علّم بالقلم علّم الإنسانَ ما لم يعلمْ ﴾ .

لمّا أتى لك عفواً كلُّ ذى حَسَبٍ   تكفّلَ السيفُ بالجهال والعَمَمِ ١٣٠
والشرُّ إن تلقَهُ بالخيرِ ضقتَ به   ذَرعاً وإنْ تلقَهُ بالشرِّ ينحسمِ ١٣١

فكان ذلك إشارة إلى أن دعوته ﷺ ستقوم على الحجة والبرهان . وقد كان ذلك ، هدى الله من هدى ، ولج أهل العنت فى غيهم وعتوهم ، وسلّوا فى وجه الدعوة سيوفهم ، فنزلت بعد ذلك آيات الجهاد .

إذا شئتَ نازعتَ امرءَ السوءِ ما نزا
إليـك ولاطمتَ اللئيمَ اللطمـا

(١٣٠) العمم : اسم جمع للعامة .

يبين فى هذا البيت أن أهل العقل والإدراك وذوى الأحساب والأنساب عن هدى الله لم يفتقر الأمر فيهم إلى استعمال السيف ، بل سلمت عقولهم للحجة والبرهان ، بادروا إلى طاعة الله من غير حرب ولا قتال ، بخلاف أهل الجهل والعناد الذين لم كن لينفع فيهم غير القوة المادية ؛ فإنها السبيل الوحيد لإذلالهم وتسليمهم ، وعدم وقوفهم فى وجه الحق ، وتعرضهم بالسوء للدعاة إليه .

(١٣١) أجرى المثل فى هذا البيت تبياناً للحجة القائمة فى الأبيات قبله من أن زواته عليه الصلاة والسلام كانت لخير الناس لا لشرهم ، وأنها كانت مما تقضى به الحكمة لإلهية فى مصلحة العباد لتقويم أمر معاشهم ومعادهم . وأنه لو تركهم يسرفون فى الباطل ، يبغون على الحق ، ويفرطون على أهله ، ولم يقابل طغيانهم عليه وعلى أصحابه بالبأس الشدة ، لاستطار شرهم ، ولما قامت للدين وأهله بعد ذلك قائمة .

وكنتُ إذا قومٌ رَمَونى رميتهم   فهل أنا فى ذا يالَ همدانَ ظالمُ
متى تصحبِ القلبَ الذكىَّ وصارماً   وأنفاً حمياً تجتنبك المظالمُ

وقوله (بالشر) أى بالقوة والبأس وسماه « شراً » مشاكلة . قال تعالى : ﴿ وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها ﴾ .

تسلِ المسيحيةَ السمحاءَ كم شربتْ   بالصابِ من شهوات الظالمِ الغَلِمِ ١٣٢
طريدةَ الشركِ يؤذيها ويوسعها   فى كلِّ حينٍ قتالاً ساطعَ الحَدَمِ ١٣٣
لولا حُمـاةٌ لها هبُّوا لنصرتها   بالسيفِ ما انتفعت بالرفق والرُّحُمِ ١٣٤

---

(١٣٢) السمحاء : الوارد فى كتب اللغة السمحة وهى التى لا ضيق فيها ولا شدة . قال عليه الصلاة والسلام « بعثت بالحنيفية السمحة » — الغلم : الهائج الثائر الشهوة .

(١٣٣) الحدم : بالتحريك شدة احتراق النار وحميها .

(١٣٤) الرحم : الرقة والمغفرة والتعطف .

لم يكن استعمال القوة فى إقامة الدعوة للدين شأن الدين الإسلامى وحده ، وهذه الديانة المسيحية الموصوفة بديانة الرهبنة والسلام لم تبدأ الدعوة إليها حتى أصاب أهلها ما أصابهم من الطرد والقتل والتعذيب والتشريد والتنكيل بأيدى الجبابرة الطغاة من الملوك والقياصرة ، بل بأيدى الشعوب والأمم . وتاريخ المسيحية بين أهل رومية مما تشيب له الولدان . وكان أقل عذاب يصيبون به أهل هذه الديانة هناك طرحهم بحيث الحيوانات المفترسة من الأسود والنمور تمزق أشلاءهم وتقطع أحشاءهم وهم أمام ينظرون . حتى اضطر المسيحيون إلى اتخاذ سراديب فى جوف الأرض لكيلا تنالهم العيون ولا تدركهم أيدى الطغاة الظالمين ، على أنهم إذا ظهروا للناس بالغوا فى كتمان أمرهم وتعرّف الواحد منهم إلى أخيه بإشارات خاصة جعلوها سراً بينهم . ودامت بهم الحال على هذا العذاب الشديد قروناً حتى نشأوا بحكم الزمان . وتشيع لهم أحد القياصرة ليتخذهم عدّته فى إقامة ملكه وتوسيع نطاقه . وجعل منهم جيوشه ورمى بهم عدوه ومقاتله ، فحاربوا تحت لوائه مستبسلين جزاء يده عليهم ، ففتحوا الفتوح ، وملكوا الشعوب . فانتشر من ذلك العهد الدين المسيحى وشاع فى كثير من بقاع الأرض . فترى الدين المسيحىّ دين الرهبنة والسلام ما دخل البلاد إلا على رؤوس الأسنة ، ولا حل إلى الأمم إلا على متون السيوف .

فذلك قوله « ولولا حماة لها ... » البيت .

لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلِه   وحرمةٌ وجبت للروح فى القِدَمِ ١٣٥
لَسُمِّرَ البدنُ المُطَهَّرُ الشريفُ على   لوحين لم يخشَ مؤذيه ولم يجمِ ١٣٦
جلَّ المسيحُ وذاقَ الصَّلبَ شانئُه   إن العقابَ بقدرِ الذنب والجُرُمِ ١٣٧
أخو النبىِّ ورُوحُ اللهِ فى نُزُلٍ   فوقَ السَّماء ودونَ العرشِ محترمِ ١٣٨

---

(١٣٥) مكان : مكانة بمعنى القرب وارتفاع المنزلة لأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة — وجبت : ثبتت له من القدم لأن الله تعالى علم الأشياء وأرادها أزلا ، فصارت واجبة بمعنى أنها لا تتخلف أبداً .

والخبر محذوف فى قوله « مكان » و « حرمة » أى ثابتان .

(١٣٦) لسمر : جواب الشرط فى البيت السابق — المطهر : الطاهر من أدران المعاصى ، ووصف بالمصدر مبالغة .

اللوحان : الصليب الذى أعدَّ له ﷺ — والمراد (بالتسمير) الصلب — لم يجم : لم يفزع .

(١٣٧) جل المسيح : على تقدير المضاف ، أى قدْره ، لأن الجلالة لا تنسب للذات مطلقةً إلا لله تعالى ، أى أنه ﷺ تنزه عما رماه به اليهود من كاذب التهم وباطل الأقاويل ، وعما زعموا من أنهم صلبوه وقتلوه : ﴿ وما قتلوهُ وماصلبوهُ ولكن شُبِّه لهمْ ﴾ — ﴿ وما قتلوهُ يقينا بلْ رفعهُ الله إليْه ﴾ .

شانئه : مبغضه .

وحرك الراء فى قوله (والجرُم) إتباعاً لحركة الجيم قبلها .

(١٣٨) أخو النبى : أى فى الرسالة — روح الله : أى روح منه . قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ﴾ . وسمى روحاً لإحيائه الموتى بإذن الله ولأنه نفخة من جبريل قال تعالى : ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ . ونسبة النفخ إلى الله تعالى مجاز . — و « من » فى الآية للابتداء .

فوق السماء : أى السماء الدنيا — محترم : صفة لقوله « نزل » بضمتين وهو فى الأصل المنزل وما هىء للضيف أن ينزل عليه .

علَّمتَهم كلَّ شىءٍ يجهلونَ به   حتى القتالَ وما فيهِ من الذِّمَمِ ١٣٩

---

(١٣٩) الذمم : جمع ذمة وهى العهد والأمان والحق .

رجوع إلى خطابه ﷺ — والضمير فى قوله « علمتهم » لمن هداهم الله تعالى للإيمان ، المشار إليهم فى البيت السابق بقوله : « وأنت أحييت أجيالاً من الرمم » .

لم يكن أحد أوفى من رسول الله ﷺ بعهد ، ولا أرعى منه للذمة ، ولا أحفظ لحرمة . وقد جاء الدين الحنيف بهذا ، وتشدد فيه وأكثر من الوصية به . قال تعالى : ﴿ وأوْفوا بالعَهد إنَّ العهدَ كان مسئولا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود ﴾ قال بعض أئمة التفسير : ومن جملتها العهد والأمان بيننا وبين غيرنا .

وروى الشيخان عنه ﷺ قال : « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذب ، وإذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لكل غادر لواء يعرف به يقال هذا غدرة فلان ابن فلان » .

وقال ﷺ : « ما نقض قوم العهدَ إلا كان القتل بينهم » .

وقد صفى الله نفسه الكريمة من البغى والجبروت ، وملأ قلبه الشريف عطفاً ورأفة ، حتى إنه ليدركه من الرحمة والرقة لأعدى عدوه أكثر مما يجد من النقمة منه والشنئ عليه ﷺ . وما وضع سيفه إلا حيث اقتضت الحال ، ولم يكن بد من ذلك لدفع المكروه وكف البغاة المتجبرين الصادين عن سبيله اللاجين فى صرف ما بعث به من الرحمة والسعادة للناس أجمعين . فإذا حاربه أهل السطوة والعدوان كان الأمر وافقاً عند رغباتهم ، وأخذهم بالسيف فى معترك القتال . فإذا أظهره الله عليهم ، وأمكنه من رقابهم ، نهى عن تعذيبهم والتمثيل بهم على كثرة ما آذوه ومثلوا بأصحابه وعشيرته وساموهم سوء العذاب : ﴿ حتى إذا أثخنتموهمْ فشدُّوا الوثاق فإما منًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحربُ أوزارها ﴾ .

كانوا يتقاسمون لئن أصابوا أصحابه ليبقرن بطونهم وليلوكن أكبادهم — وقد =

دَعَوتَهُمْ لِجِهَادٍ فِيهِ سُؤْدُدُهُمْ   وَالحَرْبُ أُسُّ نِظَامِ الكَوْنِ وَالأُمَمِ ١٣٠

= فعلوا ذلك بمن أصابوا من قتلى المسلمين — فإذا قامت الهيجاء ووضع أصحابه السيف فيهم ؛ قال ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » ، فكان شأنه معهم فى الحرب خيراً من شأنهم معه فى السلم.

وآيات عفوه واحتماله وتجاوزه ﷺ لا يكاد يأخذها الإحصاء.

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظُلمتها قط ، ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى ، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد ، وما ضرب خادماً ولا امرأة » .

وجيء إليه برجل فقيل له : « هذا أراد أن يقتلك » فقال له النبى ﷺ : « لن تراع ، لن تراع » .

وروى أن غورث بن الحرث اتبعه ﷺ فى إحدى غزواته فإذا هو قائل تحت شجرة ، ولم ينتبه النبى ﷺ إلا وهو قائم والسيف مسلول بيده ، فقال غورث : من يمنعك منى ؟ فقال « الله » ، فسقط السيف من يده ، فأخذه ﷺ وقال « من يمنعك منى ؟ » فقال « كن خير آخذ » فتركه وعفا عنه. فذهب الرجل إلى قومه يقول « جئتكم من عند خير الناس » .

وناهيك بما فعل ﷺ يوم فتح مكة ، يوم أظهره الله على قريش وأمكنه من نواصيهم وليس فيهم إلا من وتره وآذاه وغاظ عليه ، فما كان إلا أن عفا عنهم وقال لهم « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

كل هذا كان أبلغ مثل لأصحابه رضوان الله عليهم فى الوفاء بالذمم ، والتجاوز عمن ظلم ، وردّ النفس عن الجرى مع شهوتها فى حب التشفى والانتقام .

(١٣٠) سؤددهم : علو شأنهم فى الدنيا وارتفاع درجتهم فى الدار الآخرة .

وقد جرى فى الشطر الثانى من البيت مجرى المثل .

لَوْلاهُ لَمْ تَرَ لِلدَّوْلاتِ فِي زَمَنٍ   مَا طَالَ مِنْ عُمُدٍ أَوْ قَرَّ مِنْ دُعَمِ ١٣١
تِلْكَ الشَّوَاهِدُ تَتْرَى كُلَّ آوِنَةٍ
فِى الأَعْصُرِ الغُرِّ لا فِى الأَعْصُرِ الدُّهُمِ ١٣٢
بِالأَمْسِ مَالَتْ عُرُوشٌ وَاعْتَلَتْ سُرُرٌ   لَوْلا القَنَابِلُ لَمْ تُثْلَمْ وَلَمْ تَصِمِ ١٣٣
أَشْيَاعُ عِيسَى أَعَدُّوا كُلَّ قَاصِمَةٍ   وَلَمْ نُعِدَّ سِوَى حَالاتِ مُنْقَصِمِ ١٣٤

---

(١٣١) عمد : جمع عمود — قر : ثبت — دعم : جمع دعامة وهى عماد البيت ، وهى هنا كناية عما يستقيم به نظام الملك ويجتمع به شأن الأمم .

(١٣٢) الغر : جمع أغر ذى الغرة وهى بياض فى الجبهة ، والأعصر الغر : التى ساد فيها العلم وعمت أسباب العدل — الدهم : جمع أدهم وهو الأسود ، والأعصر الدهم : المظلمة التى شاع فى أهلها الجهل وفشا فيهم الظلم .

ما زالت الغلبة للقوة ، ولا زالت معتمد الدول ومستند الأمم فى رفع عماد الملك ، وتثبيت دعامة الحكم ، استوى فى ذلك الأزمان السالفة التى يظنونها أزمان تأخر وتقهقر ، والأيام الحاضرة التى يزعمونها أيام تقدم وتنور .

وفى البيت طباق .

(١٣٣) اعتلت : علت لأن افتعل يأتى بمعنى فعل .

استشهد الشاعر فى هذا البيت بما يجرى أمامنا من حركات الأمم فى هذه الأوقات . وكلها — لمن تأملها — أدلة ناصعة على صدق قوله وصحة حكمه .

(١٣٤) قاصمة : كاسرة — منقصم : منكسر .

عمد الشاعر فى هذا البيت إلى المقارنة بين أهل الديانة المسيحية وأهل الديانة الإسلامية ، فذكر أن المنتسبين اليوم إلى الدين المسيحى « دين الهدو والسلام » هم أهل القوة الحربية الدائبون على إعداد المهلكات الساحقات فى الحروب ، حتى كأنهم أصبحوا ولم يبق لهم من شغل يشغلهم إلا استخراج الذهب من بطون الأرض وإنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب فى طول الأرض وعرض البحر . وقد افتنُّوا فى أسباب الإهلاك والتدمير . ولم يكفهم أن يدمدموا على الناس ويأخذوهم بالبلاء ، عن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، ومن خلفهم ، ومن تحت أرجلهم ، حتى قاموا =

مهما دُعيتَ إلى الهيجاءِ قمتَ لها   ترمى بأُسدٍ ويرمى اللهُ بالرُّجُمِ ١٣٥
على لوائِكَ منهمْ كلُّ منتقمٍ   للهِ مستقتلٍ فى اللهِ معتزمِ ١٣٦
مسبّحٍ للقاءِ اللهِ مضطرمٍ   شوقاً على سابحٍ كالبرقِ مضطرمِ ١٣٧
لو صادفَ الدهرَ يبغى نقلةً فرمى   بعزمِهِ فى رحالِ الدهرِ لم يَرِمِ ١٣٨

= على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رؤوسهم بكل دهياء صيلم، على حين أن أهل الديانة الإسلامية الذين يتهمهم الظالمون بحب الفتح والجهاد، ويشينون سمعتهم بحب الطعن والجلاد، والولوغ فى دماء العباد، هم اليوم أهل السكينة والسلام. وهيهات أن يدانوا أهل الديانة المسيحية فى المباراة بحب الفتوح والحروب، أو يشاكلوهم فى ادخار آلات الحرب واستنباط معدات الكفاح.

(١٣٥) الهيجاء: الحرب — الرُّجُم: النجوم التى يرمى بها.

رجع إلى خطابه ﷺ، وشبه أصحابه بالأسود لما لهم من شجاعتهم وبأسهم — ورميه بهم كناية عن ندبه إياهم للجهاد، وتقديمهم إلى مواطن الطعن والجلاد.

الرمى بالرجم: يكون للشياطين، ففيه استعارة مكنية أى أنهم كالشياطين يرمون بالرجم.

(١٣٦) على لوائك: أى منضو تحت لوائك، استعار العلو للتحتية استعارة تمليحية — معتزم: الاعتزام لزوم القصد، واعتزم الرجل الطريق مضى فيه ولم ينثن.

(١٣٧) مضطرم: الاضطرام توقد النار وتأججها — سابح: جواد.

شبه حميتهم ونشاطهم فى الحرب وجولانهم فيها باضطرام النار وتأججها وأخذها يميناً وشمالا، واستعار الاضطرام لذلك المعنى ثم اشتق منه (مضطرم) على سبيل التبعية.

والأشهر أن الجار والمجرور فى قوله «للقاء» متعلق بقوله «شوقاً»، وشوقاً مفعول لأجله.

(١٣٨) يبغى: يريد. والإرادة من الدهر مجاز عن التهيؤ، قال تعالى: ﴿فوجدا فيها جداراً يريدُ أنْ ينقضَّ فأقامه﴾ — وشبه العزم بالسهم بجامع المضاء والنفوذ فى كلٍّ — وشبه الدهر بذى رحال بجامع التحول فى كلٍّ، وحذف المشبه به ورمز إليه بلازمه وهو الرحال على طريق الاستعارة المكنية — ولم يرم: لم ينتقل ولم يتحول.

وقال أبو تمام فى مثل هذا المعنى وأبدع:

مشت قلوبُ أناسٍ فى صدورهم   لما رأوك تمشى نحوهم قُدُماً =

بيضٌ مفاليلُ من فعلِ الحروبِ بهم   من أسيُفِ اللهِ لا الهنديَّةِ الخُذُمِ ١٣٩
كمْ فى التراب إذا فتشتَ عن رجلٍ   منْ ماتَ بالعهدِ أو منْ ماتَ بالقسمِ ١٤٠
لولا مواهبُ فى بعضِ الأنامِ   لما تفاوتَ الناسُ فى الأقدارِ والقِيَمِ ١٤١
شريعةٌ لك فجّرتَ العقولَ بها   عنْ زاخرٍ بصنوفِ العلمِ ملتطمِ ١٤٢

= أمطرتهم عزمات لو رميت بها   يوم الكريهة ركن الدهر لانهدما

(١٣٩) مفاليل: الفلّ الثلم فى السيف — الهندية: نسبة إلى الهند وكانت مشهورة بطبع السيوف — الخذم: جمع خذم ككتف السيف القاطع.

بيض: أى سيوف بيض. شبههم بالسيوف لإزهاقهم نفوس الأعداء وهو تشبيه بليغ — ومفاليل: ترشيح للتشبيه بالسيوف.

(١٤٠) بالعهد: أى احتفاظاً بما عاهد الله ورسوله عليه من نصرة رسول الله ﷺ وقتاله بين يديه حتى يُقتل، أو تضع الحرب أوزارها. قال تعالى: ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم منْ قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا﴾ — بالقسم: أى براً بالقسم.

منْ: تفصيل لحال الرجل، أو تفصيل لمعنى (كمْ).

(١٤١) أشار فى هذا البيت إلى أن ما ناله أصحاب الرسول رضوان الله عليهم من الفوز بالسعادة، وارتفاع الدرجة عند الله تعالى، إنما كان بما تقدم لهم من الفضائل والبلاء فى نصرة الدين وتعرضهم للقتل والطعن فى سبيل الله تعالى. ولولا ذلك ما كان لهم فضل على سائر الناس ولا عدت درجتهم منزلة غيرهم من العالمين.

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجودُ يُفقر والإقدام قتّال

وقد أجرى البيت مجرى المثل.

(١٤٢) شريعة: التنوين فيها للتعظيم وهو المسوغ للابتداء بالنكرة، أو أن «لك» صفة، وجملة «فجرت العقول بها» خبر.

شبه العقول بالعيون الجارية بالماء فى جوف الأرض وحذف المشبه به ورمز إليه بلازمه وهو «التفجير» على سبيل الاستعارة المكنية.

«زاخر» صفة لموصوف محذوف أى بحر زاخر. شبه العلم بالبحر بجامع الإحياء فى كلٍّ على سبيل الاستعارة التصريحية. — و «عن» بمعنى من.

يلوح حول سنا التوحيد جوهرها   كالحلى للسيف أو كالوشى للعلم ١٤٣
سمحاء حامت عليها أنفس ونُهى   ومن يجد سلسلاً من حكمة يحم ١٤٤
نورُ السبيل يُساسُ العالمون بها   تكفلت بشبابِ الدهر والهرم ١٤٥
يجرى الزمانُ وأحكامُ الزمانِ على   حُكمٍ لها نافذٍ فى الخلق مرتسمِ ١٤٦
لما اعتلت دولةُ الإسلامِ واتسعت   مشت ممالكهُ فى نورها التممِ ١٤٧

---

(١٤٣) الوشى : النقش .

(١٤٤) حامت : عطفت ومالت — نهى : جمع نهية وهى العقل — السلسل : الماء العذب .

من حكمة بيان للسلسل فهو مجاز بالاستعارة على حد قوله تعالى ﴿ حتى يتبين لكم الخيطُ الأبيضُ من الخيط الأسودِ من الفجر ﴾ .

المعنى — أنه لسماحتها ووضاحة حجتها وفصاحة أحكامها « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، قد سلمت بها العقول ، وآمنت بها القلوب ، وأسرعت إليها النفوس حتى شاعت فى أطراف الأرض فى اليسير من الزمان والحال كذلك فى كل سائغ نافع ألا ترى إلى الناس متى أصابوا الماء العذب أقبلوا عليه ينقعون به غلتهم وتركوا ما دونه .

وقد ذهب فى الشطر الثانى من البيت مذهب المثل .

(١٤٥) نور السبيل : لأنها يهتدى بها إلى غاية النجح والفلاح فى الدنيا ، والفوز والسعادة فى الآخرة — شباب الدهر والهرم : كناية عن أوله وآخره أو عن حالى إقباله وإدباره — وتكفلها بشباب الدهر الخ : أى تكفلها بما يعلى أهلها ويصلح من شأنهم على كل حال من الأحوال بلا تغيير فى أحكامها ولا تبديل لنصوصها .

(١٤٦) نسبة « الجرى » للزمان مجاز ، والمراد أهله — أحكام الزمان : أحواله فلا تختص بحال دون حال لعمومها ومناسبتها لكل زمان ومكان . وفيه رد على من يزعم تخصيصها بأمة العرب . فإن الله أرسل رسوله للناس أجمعين إلى أن تقوم الساعة ، وجعل رسالته قدراً مشتركاً بينهم لا فرق بين متقدمهم ومتأخرهم ، باديهم وحاضرهم ، وهو العليم بما يوافق مصالحهم على تفاوت أحوالهم واختلاف طباعهم . « تنزيل من حكيم حميد » .

(١٤٧) التمم : التام .

وعلمت أمة بالقفر نازلة   رعى القياصر بعد الشاءِ والنعم ١٤٨
كم شيد المصلحون العاملون بها   فى الشرق والغرب ملكاً باذخ العِظم ١٤٩
للعلم والعدل والتمدين ما عزموا   من الأمور وما شدوا من الحزُم ١٥٠
سرعان ما فتحوا الدنيا لملتهم   وأنهلوا الناس من سلسالها الشبم ١٥١

---

(١٤٨) هذا البيت والبيت الذى قبله بمثابة البرهان على ما تقدمهما من عموم الشريعة الإسلامية وتكفلها بأسباب الفوز والفلاح للناس أجمعين على تعاقب الأزمان وتمايز الأحوال . فإن أول من تلقاها من الناس العرب ، وكانوا أهل بداوة جرداء ، وجهالة مطبقة ، وفقر مدقع ، قد اصطلحت عليهم أسباب التلف والهلاك ، وبغى بعضهم على بعض ، فلم يبق فيهم إلا موتور يطلب بوتر ، أو وادٍ مأخوذ فى ثأر ، حتى لو أنهم استوفوا ما لهم من الدماء ما بقى على ظهر الجزيرة أحد . فأدركهم الله تعالى بشريعة الإسلام ، فصلح فاسدهم ، واغتنى فقيرهم ، وتعلم جاهلهم ، وكثر قليلهم ، وعز ذليلهم . فلما فتح الله لهم الفتوح ، وذلل لهم الأمم ، وأمكنهم من زمام الممالك ، أحكموا بالدين سياستها ، وأجملوا بالشريعة رعايتها ، وقادوها إلى أبعد غايات السعادة والنجاح . وناهيك بما انسق لهم فى ملك الأندلس من الحضارة الباهرة ، وما أزهر فى عهدهم من العلوم والفنون ، وما أخرجوا للناس من وجوه الصناعات ، إلى غير ذلك مما أخذه عنهم أهل الغرب وجعلوه أساس مدنيتهم التى يعاجزوننا بها اليوم .

(١٤٩) باذخ : عال .

شبه الملك الذى أقاموه بالقصر الفخم ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بلازمه وهو التشييد على طريق الاستعارة المكنية ، والتشييد تخييل . وباذخاً : ترشيح للاستعارة .

(١٥٠) الحزم : جمع حزام — للعلم : خبر مقدم والمبتدأ « ما عزموا » . وتقدم الخبر ليفيد الحصر ، أى أن سعيهم كان خالصاً لنشر العلم وإقامة العدل وأخذ الناس إلى أقصى غايات الحضارة والتمدن والرقى .

و « شدوا الحزم » كناية عن اجتهادهم فى سعيهم لهذه الأغراض .

(١٥١) سرعان : اسم فعل يستعمل خبراً محضاً ، وخبراً فيه معنى التعجب ، يقال سرعان ما فعل كذا أى ما أسرعه — النهل : أول الشرب ؛ تقول أنهلت الإبل إذا —

ساروا عليها هداةَ الناس فهى بهم إلى الفلاح طريقٌ واضحُ العِظَمِ ١٥٢
لا يهدمُ الدهرُ ركناً شاد عدلُهُمُ وحائطُ البغى إنْ تلمسه ينهدمِ ١٥٣
نالوا السعادةَ فى الدارَين واجتمعوا على عميمٍ من الرضوان مقتسَمِ ١٥٤
دعْ عنك روما وآثينا وما حوتا كلُّ اليواقيتِ فى بغدادَ والتُّوَمِ ١٥٥

= شربت من أول الورد — السلسال : الماء العذب — الشبم : البارد .

تجوّز بالإنهال عن تعهم بأحكام الشريعة وتعليمهم إياها — وقوله (من سلسالها) من إضافة المشبه به للمشبه .

(١٥٢) ساروا عليها : أخذوا بها وجروا على أحكامها — هداة الناس : أى حالة كونهم هادين للناس — فهى : أى الملة . بهم : أى بسبب قيامهم بها وشرحم لها .

(١٥٣) شاد عدلهم : صفة لقوله « ركناً » ، والعائد محذوف أى شاده .

شبه الملك الذى أسسوه بالقصر ذى الركن الشديد الذى لا يحيف عليه الزمان ، ولا تعمل فيه أيدى الحدثان — لأنه أسس على العدل والتقوى — وحذف المشبه به ، ورمز إليه بلازمه وهو الركن على طريق الاستعارة المكنية .

« وحائط البغى » : شبه البغى ببيت قائم على أساس واهٍ ، بحيث إذا لمسه لامس هوى وانقض — لأنه أسس على شفا جرف — وحذف المشبه به ، ورمز إليه بلازمه وهو الحائط على طريق الاستعارة المكنية .

« أفمن أسّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خيرٌ أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به فى نار جهنم واللهُ لا يهدى القوم الظالمين » .

والبيت يشير إلى قولهم : « العدل أساس الملك » .

وقد ذهب فى الشطر الثانى مذهب المثل .

(١٥٤) نالوا السعادة فى الدارين : نالوها فى الدار الأولى ، وكتب لهم نيلها فى الدار الآخرة .

(١٥٥) روما : هى المدينة المعروفة الآن بهذا الإسم قاعدة لمملكة إيطاليا ، وكانت فى الزمن السابق قاعدة لمملكة الرومان المشهورة .

آثينا : قاعدة مملكة اليونان ، وكانت من أكبر مدن الأمم اليونانية فى العصور =

وخلِّ كسرى وإيواناً يدلُّ به هَوَى على أثرِ النيران والأَيْمِ ١٥٦

= السالفة . بغداد : قاعدة الخلافة الإسلامية فى دولة بنى العباس . التوم : جمع تومة وهى الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة .

كانت الدولة اليونانية فى القرون الأولى منبعاً للعلوم والمعارف ، ومصدر النظار فى تكوين الممالك ، وقد بلغ أهلها على الخصوص درجة راقية من بين الأمم فى العلوم العقلية والفلسفية ، تعد إلى اليوم أساساً لطلاب هذه العلوم فى أنحاء العالم . وبلغت من البأس فى الحروب شأواً يضرب به الأمثال ، ووصلت فى وضع الأحكام وتسنين القوانين إلى حد احتذته بقية الأمم بعدها . وبالجملة فقد كانت المدنية اليونانية من أمهات المدنيات فى العالم .

ثم أعقبتها دولة الرومان ، وتغلبت على القسم الأعظم من العالم ، واستولت على المدنية اليونانية ، فأخذت منها أحسنها وطرائفها ، وأضافتها إلى ما كان لديها من مدنيتها ، وانتفعت فى تكوين نظامها بما وضعه فلاسفة اليونان وحكماؤهم ، وحولت ما هنالك من علوم البحث والنظر إلى الوضع والعمل . فكان لها القدح المعلى فى باب تسنين القوانين ووضع أصول الأحكام . ولا زال طلاب الأحكام الوضعية يتدارسون قانونهم إلى اليوم . ثم أنهم فاقوا الأمم جميعاً فى أبواب الرفه والترف والتفنن فى استنباط اللذائذ ، وبلغوا من ذلك مبلغاً لا يزال الغرب إلى اليوم يقلدهم فيه .

ثم جاء الإسلام بالشرع الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وظهرت مدنية الإســلام ، فبزت مدنية الدولتين فى العزة والمنعة ، والقصد والعدل والفضيلة ، والتنزه عن الجرى مع الشهوات الباطلة ، فأزهر العلم ، وربت المعارف ، ووصلت مدنية الإسلام فى عهد بنى العباس إلى غاية لم تلحقها أمة من الأمم . وكانت سرة مدائنهم بغداد التى اجتمع لها من أسباب المدنية الصحيحة والحضارة الراقية ما لم يجتمع لمدينة غيرها . فذلك قوله : « كل اليواقيت فى بغداد والتوم » .

وحرك الواو إتباعاً لحركة التاء قبلها .

(١٥٦) كسرى : لقب لكل من يلى ملك فارس — « النيران » لعله يريد بها نيران فارس التى خبت ليلة مولد النبى ﷺ ، وكان ذلك فى أيام كسرى أنوشروان . — الأَيْم فى القاموس الإيام ككتاب : الدخان ، ولعله المقصود هنا لمناسبة « النيران » . =

وأثرك رعمسيس إنّ المُلكَ مَظهرهُ في نهضةِ العدلِ لا في نهضةِ الهرمِ ١٥٧

بعد ما قارن في البيت السابق بين مدنية الإسلام ومدنية الدولتين ، عطف على الدولة الفارسية ، فأشار إلى أن أرقى ما انتهى إلى الناس من أمر مدنيتها هي تلك البنية « الإيوان » ، التي افتنت في تشييدها وتنسيقها ، ولبثت السنين الطوال تفاخر بها الدول ، وها هي ذي قد تصدعت ليلة مولد صاحب الشريعة الإسلامية ﷺ ، ودرست آثارها بعد ذلك كما خمدت نيرانهم التي قيل إنه قد مضى عليها ألف عام لم تخب في غضونها لحة واحدة . فأين هذا وذاك من مدنية الإسلام التي أنافت بالجوزاء رفعة وعلاءً وعمت الخافقين نورا وضياء ! ؟ ...

(١٥٧) الهرم : الأهرام في مصر كثيرة وأشهرها أهرام الجيزة الثلاثة ، وأكبرها أشهرها وأعجبها . حتى إذا ذكر لفظ « الهرم » صرفه العرف إليه .

رعمسيس : اسم بعض الفراعنة (ملوك مصر القدماء) وقد تسمى بهذا الإسم غير واحد منهم . ولعل الشاعر يريد أولئك الفراعين على الجملة الذين ينتسب مجدهم إلى مثل هذا العمل الخطير ، وإن كان باني الهرم ليس « رعمسيس » بعينه .

يقول : ما كان لقدماء المصريين أن يفاخروا بمدنيتهم التي كان أسمى مظاهرها هو هذا البنيان السامق ، على حين أمسى أكبرَ الأدلة على ظلمهم وجبروتهم . وأي مدنية هذه التي تزين لرجل واحد أن يسوق من رعيته مائة ألف رجل أو يزيدون يحملهم الأثقال ويسخرهم في مشاق الأعمال ، حتى إذا ما كلّت أعناقهم ، واختلفت أضلاعهم ، وفتّت سواعدهم ، التقط غيرهم من أمته التي أوشكت أن تفنيها ثلاثون سنة على هذه الحال بلا أجر ولا جزاء . كل ذلك ليبني قبراً لنفسه يطاول كيوان ، ويبلى دونه الأزمان .

ليس هذا بمظهر التمدن ، إنما مظهره العدل الذي تصلح به أحوال الرعية ، وتستقيم به أمورهم ، فتنهض بهم الدولة ، ويعلو شأن الأمة ، و « العدل أساس الملك » .

دارُ الشرائعِ رُوما كلما ذُكرت دارُ السلامِ لها ألقت يدَ السَّلَمِ ١٥٨
ما ضارعتها بياناً عند مُلتئمٍ ولا حكتها قضاءً عند مختصمِ ١٥٩
ولا احتوت في طرازٍ مَن قياصرها على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعتصمِ ١٦٠

---

(١٥٨) دار السلام : بغداد — والسَّلَم : التسليم .

(١٥٩) ملتئم : مجتمع — مختصم : بمعنى المصدر أي اختصام .

كما اشتهرت « روما » بقضاتها وقوانينها ، اشتهرت بخطبائها وشعرائها ، وكان من عادة الرومانيين إذا نزل بهم الأمر العظيم عمدوا إلى بعض أماكنهم العامة فخطبهم الخطباء ، وأنشدهم الشعراء الذين كان لفصاحة ألسنتهم في الناس تأثير عجيب . ومع هذا فما دانوا في قضائهم شأو بغداد التي كان يقضى فيها بدين الله ، وهو أجل من أن يقاس به غيره ، ويوازن به ما سواه ، ولا بلغوا في فصاحتهم شأن فصحاء الدولة العباسية الذين تناولوا في كل باب ، فهزوا النفوس ، وخلبوا الألباب ، حتى أن بعض الأمراء كانوا إذا امتنع عليهم فتح قلعة ، أو تعذر عليهم امتلاك حصن ، أو أوشك أن يسطو بجيوشهم العدو ، أنشدوا في عسكرهم ما ينظم شعراؤهم في أبواب الحماسة ، فحميت نفوسهم ، وقويت قلوبهم ، واشتد بأسهم ، وجرفوا عدوهم ، ويسر لهم ما كان قد امتنع عليهم . فكان شعر الشاعر وقول الكاتب أقوى لظهورهم من إسعافهم بالجيوش وإمدادهم بالكتائب . ولا نطيل القول في هذا الباب ، فإن المقام غني عن التبيين .

(١٦٠) الطراز : علم الثوب ، والجيد من كل شيء — ما احتوت على رشيد الخ : أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم .

« رشيد » : هو هارون الرشيد بن محمد المهدي الخليفة العباسي المشهور ، ولي الخلافة بعد أخيه موسى الهادي عام سبعين ومائة .

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وفصحائهم وكرمائهم ، أحسن سياسة الرعية ، وأقام فيها القسط ، وقدم أهل العلم والفضل ، فاستقام له الملك ، وأزهرت في عهده الدولة ، واتسعت رقعة المملكة حتى جبي إليه معظم الدنيا . وكان يحب الشعر والشعراء ، ويجزل لهم الصلات ، فكان للأدب في أيامه شأن عظيم .

قال الأصمعي : صنع الرشيد طعاماً وزخرف مجلسه وأحضر أبا العتاهية ، وقال له =

= «صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا» ، فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالماً ... في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : «أحسنت ، ثم ماذا ؟» فقال :

يسعى عليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرواح أو البكور

فقال : «حسن ، ثم ماذا ؟» فقال :

فإذا النفوس تقعقعت ... في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ... ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد . فقال الفضل بن يحيى : «بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته !» فقال الرشيد «دعه ، فإنه رآنا في عمى ، فكره أن يزيدنا منه» . وحج مرة ماشياً ولم يفعلها خليفة غيره . وكان يتواضع للعلماء ويدني منه مجلسهم . قال أبو معاوية وكان من أفاضل العلماء : أكلت مع الرشيد يوماً فصب على يدي الماء رجل ، فقال لي : يا أبا معاوية أتدري من صب الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، قال : أنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم ؟ قال : نعم . وكان الرشيد عالماً شاعراً راوية للأخبار .

ومات بطوس سنة ثلاث وتسعين ومائة .

«مأمون» : هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور ، بويع له بالخلافة بعد أخيه محمد الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة . كان المأمون من أفاضل الخلفاء ، وعلمائهم وحكمائهم ، حاط دولته بالحزم والعزم ، وكان فطناً شديداً كريماً ، فحص علوم الحكمة وحصل كتبها ، وأمر بنقلها إلى العربية ، وقرّب أهل العلم والحكمة ، وعقد مجالس المناظرة ، واجتمع له في هذا الباب ما لم يجتمع لخليفة غيره . وكانت إحدى هناته العظيمة القول بخلق القرآن ، وقد لجّ في ذلك ، وألزم الناس أن يقولوا به ، وغلظ على العلماء ، وآذى من لم يقل مقالته من أئمة الدين ، ولولا أن تقدمت له هذه ما فضله من العباسيين أحد .

ومات بثغر «طرسوس» سنة ثماني عشرة ومائتين .

«معتصم» : هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون وكان المعتصم سديد الرأي شديد القوة ، شجاعاً ، سالح من خلافته في الفتوح والحروب ، وفتح عمورية في سنة ثلاث وعشرين ومائتين .

مِنَ الدينِ إذا سارت كتائبهم ... تصرفوا بحدودِ الأرضِ والتخُمِ[161]

والسبب في غزوها أن ملك الروم خرج إلى بعض بلاد المسلمين ونهب حصناً من حصونهم يقال له «زبطرة» ، وقتل من به من الرجال وسبى الذرية والنساء . وكان في جملة السبي امرأة هاشمية ، فسمعها بعض تيه وهي تقول : «وامعتصماه» . فقال لها : «سيوافيك المعتصم على بلق الخيول» ، يتهكم عليها ويسخر منها ، وانتهى إلى المعتصم ذلك ، فاستعظمه ، وصاح من مجلسه : «لبيك لبيك» ، ونهض من فوره وصاح في قصره (الرحيل ، الرحيل) وكتئاً آتيه ، ثم ركب دابته ، وسمط خلفه شكالاً وحقيبة فيها زاده ، وأمر العسكر بالتجهز ، ثم سار فظفر ببعض الروم ، فسأله عن أحصن مدنهم وأعظمها وأعزها عندهم ، فقال له «إن عمورية هي عين بلادهم وأمنعها» ، فقصد إليها وجمع عساكره عليها وحاصرها ، ثم فتحها وقتل فيها وفي بلادهم وسبى وأسر وبالغ في تأديبهم ، حتى هدم عمورية وعفّى آثارها .

وفي هذه الواقعة قال أبو تمام بائيته المشهورة التي أولها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... متونهن جلاءُ الشكِّ والرِّيبِ

ومنها يخاطب المعتصم :

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسرٍ من التعب

ومنها يشير إلى مبالغة المعتصم في قتالهم واستئصاله إياهم :

لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على ... بانٍ بأهلٍ ولم تغرب على عزب

ومات المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين .

---

(١٦١) الكتائب : جمع كتيبة وهي الجيش — التخم : كعنق جمع تخوم وهي الفواصل بين الأرضين من العالم والحدود .

ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ   فلا يُدانُونَ فى عقلٍ ولا فهمِ[١٦٢]
يطأطئ العلماءُ الهامَ إن نبسوا   من هيبة العلمِ لا من هيبة الحُكُمِ[١٦٣]
ويُمطرون فما بالأرض مَن محلٍ   ولا بمن بات فوق الأرضِ من عُدُمِ[١٦٤]
خلائفُ الله جلّوا عن موازنةٍ   فلا تقيسنَّ أملاك الورى بهمِ[١٦٥]

---

(١٦٢) كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس إذا فرغوا من النظر فى أمور الدولة وانتهوا من مجالس القضاء والحكومة بين الناس دعوا مَن ببابهم من العلماء والأدباء والشعراء، فعقدوا بحضرتهم مجالس العلم والأدب، وكان لأكثرهم فقه فى الدين وتقدمٌ فى تحصيل العلوم ورواية الأخبار وحسنُ نظر فى نقد الشعر وخبرةٌ بمواضع الكلام.

(١٦٣) طأطأ الرجل رأسه خفضها — الهام: جمع هامة وهى رأس كل شىء — نبسوا: تكلموا فأسرعوا، والمراد هنا مطلق التكلم.

الحكم: السلطة وحرك الكاف إتباعاً لحركة الحاء قبلها، ويجوز أن يكون بفتحتين، والحَكَم: الحاكم والأول هو الأنسب.

(١٦٤) المحل: الجدب — العدم: فقدان المال.

وأخبار عطاياهم وهباتهم وما أتحفوا الناس به من الطرائف وأقطعوهم من الضياع وأجروا عليهم من الوظائف قد احتشدت به الكتب، وامتلأت به بطون السير. وإن كان بعضها قد غالى فى ذلك وذهب فى تقدير عطاياهم ومنحهم مذهباً أخرجها عن الحدّ وجاوز بها القصد. ولكن الثابت على كل حال أنهم أطلقوا أيديهم بالعطاء، ووصلوا أهل الحاجة، وحملوا الكلّ، وأحسنوا جوائز من قصدهم من الأدباء والشعراء.

وحرك الدال إتباعاً لحركة العين قبلها فى قوله (العدم).

(١٦٥) خلائف الله: هذا قول مستأنف عام لجميع الخلفاء المتقدمين والمتأخرين. وذكر الخلفاء الراشدين بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماما بشأنهم وتيمناً بذكرهم. وكيف لا يعد تنقصاً لقدرهم وتركاً لحقهم أن يقاس بهم غيرهم من الأمراء أو =

مَن فى البريّةِ كالفاروقِ معدلةً   وكابنِ عبدِ العزيزِ الخاشعِ الحشِمِ[١٦٦]

= أن يُلتمس لهم شبيه بين ملوك الأمم ودهاتها! وهم ورثة الرسول ﷺ الذين اصطفاهم الله لصحبته، فتقدمت عنده رتبتهم، وعنه أخذوا حكم الأمم وسياسة الدول، وأثرُ ذلك ما تعرف من أمر خلافتهم، وذلك أشهر من أن يحتاج إلى التعريف، وأظهر من أن يحتمل البيان.

ووصل بهم عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لشدة فضله وورعه وتشبهه بهم، واقتدائه فى حكومته بحكومتهم، فكان حقيقاً أن يذكر فيهم ويلحق بهم.

(١٦٦) المعدلة: العدل

(الفاروق) هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وسمى فاروقاً لفرقه بين الحق والباطل، بمعنى تحقيقه الحق وإدحاضه الباطل.

كان عمر رضى الله عنه أعدل الناس وأمضاهم فى الحق وأرعاهم لإقامة حدود الله تعالى. واستقصاء أخباره فى هذا الباب مما يطول به القول. وفى هذا المثال الذى نرويه لك غنى وكفاية، يتعرف منه مَن لا يعرف عمر كيف كانت شدته فى الحق وإسراعه إلى أخذ الناس بالعدل بالغين ما بلغوا من عظم القدر ونباهة الذكر.

رُوى أن جبلة بن الأيهم بن أبى شمر الغسانى آخر ملوك الغسانيين لما أراد الإسلام أقبل إلى المدينة فى خمسمائة فارس عليهم ثياب الوشى، وهو لابس تاجه وفيه قرط مارية، ففرح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بإسلامه، وفرح المسلمون، وخرجوا لتلقيه، حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عمر رضى الله عنه. وبينا هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من بنى فزارة فحله، فلطمه جبلة فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزارى عمرَ بن الخطاب. فبعث إليه فقال: «ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك هذا الفزارى فهشمت أنفه؟» فقال: «إنه وطئ إزارى فحله» فقال له عمر «أما أنت فقد أقررت، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك؟». قال «أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة!!» قال «يا جبلة إنه قد جمعك وإياه الإسلام فما تفضله بشىء إلا بالعافية» قال «والله لقد رجوت أن أكون فى الإسلام أعز منى فى الجاهلية» قال عمر «هو ذلك» قال، «أخّرنى إلى غد يا أمير المؤمنين» قال «ذلك لك». فلما كان =

وكالإمامِ إذا ما فضّ مزدحماً   بمدمعٍ فى مآقى القوم مزدحمِ ١٦٧
الزاخرُ العذبُ فى علمٍ وفى أدبٍ   والناصرُ النَّدْبُ فى حربٍ وفى سلمِ ١٦٨

= جنح الليل خرج هو وأصحابه فلم يَنِ حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر وأقام عنده .

ابن عبد العزيز : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الخليفة الأموى ، بويع له بالخلافة بعد موت سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين .

كان عمر بن عبد العزيز من أفضل الخلفاء وأعلمهم وأورعهم وأزهدهم وأرغبهم فى العمل للآخرة . وكان له فى باب الزهد والتقشف ما لم يسمع بمثله عن خليفة بعده ، ملك الأمم وجبى أقطار الأرض . وقد ساس الناس وأقام العدل وانتصف لرعيته حتى من نفسه وخاصة أهله ، وردّ المظالم حتى مضى بعدله المثل ، فاشتد فى عهده ساعد الدولة ، وقام به عمود الملة .

ومن أحسن ما يؤثر له أن عبد الملك بن مروان دعاه إليه مرة فى جوف الليل فأقبل عليه ، فإذا الخليفة جالس وبين يديه رجل مكبل بالحديد والسياف قائم على رأسه ، فقال له : « يا أبا حفص ، ما قولك فى رجل سبّ أمير المؤمنين وسب آباءه ؟ » فقال « سبه كما سبك ، وسب آباءه كما سب أباك » فغضب من ذلك عبد الملك ، وأمر بالرجل فقتل .

وتوفى عمر رحمه الله بدير سمعان سنة إحدى ومائة .

(١٦٧) الإمام : هو الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه — مآقى : جمع مأق وهو من العين طرفها مما يلى الأنف ، وهو مجرى الدمع .

(١٦٨) الندب : فى لسان العرب يقال رجل ندب خفيف فى الحاجة سريع ظريف نجيب .

كان الإمام رضى الله عنه أفصح الناس إذا خطب ، وأبلغهم إذا كتب ، أما علمه وفقهه فالبحر لا يدرك غوره ، ولا ينزف غمره ، من قرأ سيرته وتتبع كلامه وكتبه عرف له أعظم من هذا وأبلغ . وأما شجاعته فى الحرب ونجدته فى السلم ، فقد شاع =

أو كابنِ عفانَ والقرآنُ فى يده   يحنو عليه كما تحنو على الفُطُمِ ١٦٩
ويجمعُ الآىَ ترتيباً وينظمها   عقداً بجيد الليالى غيرَ منفصمِ ١٧٠

= القول فيهما على ألسنة الناس عامتهم وخاصتهم ، حتى لم يبق ثمت محل لتعريف ولا موضع للبيان .

(١٦٩) ابن عفان : هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه — الفطم : جمع فطيم وهو الصبى المفصول عن الرضاع .

(١٧٠) قال الجلال السيوطى رحمه الله فى كتاب « الإتقان » فى النوع الثامن عشر فى جمع القرآن وترتيبه ما نصه :

قال الخطابى : « إنما لم يجمع ﷺ القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاءً لوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر » .

وقال الحاكم فى « المستدرك » : « جمع القرآن ثلاث مرات : إحداها بحضرة النبى ﷺ ، والثانية بحضرة أبى بكر ... (إلى أن قال) ... قال الحاكم والجمع الثالث هو ترتيب السور فى زمن عثمان » . روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى » . فأرسل إلى حفصة ، أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف .

وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا . حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » . إلى أن قال الجلال : « قال ابن حجر وكان ذلك فى سنة خمس وعشرين » .

جُرحان فى كبد الإسلام ما التأما   جرحُ الشهيدِ وجُرحٌ بالكتاب دَمِى ١٧١
وما بلاءُ أبى بكرٍ بمتَّهمٍ   بعدَ الجلائل فى الأفعال والخِدَمِ ١٧٢

= وأخرج ابن أبى داود من طريق محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال : « لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف ، جمع له إثنى عشر رجلاً من قريش والأنصار ، فبعثوا إلى الربعة التى فى بيت عمر ، فجىء بها ، وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تدارؤا فى شىء أخروه ، قال محمد : « فظننت إنما كانوا يؤخرونه لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة ، فيكتبونه على قوله » .

وقال القاضى أبو بكر فى (الانتصار) : « لم يقصد عثمان قصد أبى بكر فى جمع نفس القرآن بين لوحين ، وإنما قصد جمعه على القراآت الثابتة المعروفة عن النبى ﷺ ، وإلغاء ما ليس كذلك ، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير ، ولا تأويل أثبت مع تنزيل ، ولا منسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه ، خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتى بعد » .

وقال الحارث المحاسبى : « المشهور عند الناس أن جامع القرآن عثمان ، وليس كذلك ؛ إنما حمل عثمان الناس على القراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينهم وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشى الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام فى حروف القراآت . فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف بوجوه من القراآت المطلقات على الحروف السبعة التى أنزل بها القرآن . فأما السابق إلى جمع الجملة فهو الصدّيق ، وقد قال على « لو وليت لعملت بالمصاحف التى عمل بها عثمان » انتهى .

(١٧١) وجرح بالكتاب دمى : أى وجرح دَمِىَ به الكتابُ ، وقلب للمبالغة ، وذلك أن قتلة عثمان رضى الله عنه دخلوا عليه الدار وخبطوه بالسيوف وهو صائم ، والمصحف فى حجره ، وهو يقرأ فيه ، فوقع المصحف بين يديه وسال الدم عليه — ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(١٧٢) لم يبل أحد من الناس بلاء أبى بكر رضى الله عنه فى إعزاز كلمة الدين ونصرة رسول الله ﷺ . وهو أول من آمن به وصدّقه بظهر الغيب ، وآثره على =

بالحزمِ والعزمِ حاطَ الدِّين فى محنٍ   أضلَّت الحلمَ من كهلٍ ومحتلمِ ١٧٣
وحُدْنَ بالراشد الفاروق عن رَشَدٍ   فى الموتِ وهو يقينٌ غيرُ منبهمِ ١٧٤
يجادلُ القومَ مُستلاً مُهنَّدَه   فى أعظم الرسل قدْراً كيف لم يدُمِ ١٧٥

= نفسه وخاصة أهله ، وكان أحب الناس إليه صلوات الله وتسليماته عليه ، وأعظمهم منه موضعاً ، وأكرمهم محلاً ، حتى قال ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا » .

وتعداد مناقبه وآثاره رضى الله عنه يحتاج إلى سفر خاص ، على أنها أشهر من أن تنوه بها الأسفار أو تقوم بتعريفها الأخبار .

(١٧٣) يشير إلى ما كان من افتتان الناس يوم قُبض رسول الله ﷺ . حيث ارتد عن الإسلام كثير من الأعراب فى النواحى المتفرقة ، وامتنعوا من أداء الزكاة ، فأزمع أبو بكر رضى الله عنه قتالهم ، فأشار عليه من حضره من كبار الصحابة بترك ذلك لئلا تفشو الفتنة ويشتد الخطب ، فأبى إلا هذا ، وعزم على الخروج إليهم بنفسه ولو لم يتبعه من الناس أحد . وقال : « والله لو منعونى عقالاً مما كانوا يؤدونه رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه » . فاستنفر الناس للجهاد ، وسيّر إليهم إحدى عشرة كتيبة ، فقاتلتهم ، وكانت الغلبة للجيوش الإسلامية فأبادتهم قتلا وأسرا ، ورجع من بقى منهم إلى الإسلام ، وأدى الزكاة .

(١٧٤) يقول ما فتئت تلك المحن التى تنحرف بعمر رضى الله عنه عن الرشد ، وله ما تعلم من كمال الرشد ووفور العقل وصدق اليقين ، وتذهله عن إدراك أمر من أظهر البديهيات لديه ، وهو أن يدرك الموتُ رسول الله ﷺ ، وكل نفس ذائقة الموت .

(١٧٥) وذلك أنه لما قبض رسول الله ﷺ وقال الناس « مات رسول الله » أسرع عمر إلى سيفه وتوعد من يقول ذلك ، وقال « إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم ، فلما حضر أبو بكر وأخبر الخبر ، كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أكب عليه فقبله وبكى ، ثم قال : « بأبى أنت وأمى ، والله لا يجمع الله عليك =

لا تعـــذِلوهُ إذا طاف الذهولُ به
مات الحبيبُ فضلَّ الصبُّ عن رَغَمِ[١٧٦]

* * *

يا ربِّ صلِّ وسلِّم ما أردتَ على   نزيلِ عرشك خيرِ الرُّسْلِ كلِّهِمِ[١٧٧]
مُحيي الليالي صلاةً لا يُقطِّعها   إلا بدمعٍ من الإشفاقِ منسجمِ[١٧٨]
مُسبِّحاً لك جُنحَ الليلِ مُحتملاً   ضُراً من السُّهْدِ أو ضُراً من الورمِ[١٧٩]

— موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتها » . ثم خرج إلى الناس وقال : « ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » وتلا قوله تعالى : ﴿ إنك ميِّتٌ وإنهم ميتون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسلُ أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم ﴾ الآية . وقال عمر رضي الله عنه : « والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها » .

(١٧٦) ما بعمر إنكارٌ للموت ، ولا جحود لقول الله ، ولكن أذهله شدة المصيبة ، وأي مصيبة أعظم من موت رسول الله ﷺ . فلا لوم عليه فيما ملكه من الذهول ، ولا عتاب عليه فيما تولاه عند هذه الحال من الجزع . وأي امرىء لم يجزع وأي كبد لم تتصدع ، وأي عزم لم يتخذّل ، وأي عقل لم يتزلزل ! .

لقد كان يُدْعى لابس الصبر حازما   فأصبح يُدْعى حازما حين يجزع

* * *

(١٧٧) نزيل عرشك : كناية عن ارتفاع درجته ﷺ وقربه من ربه .

(١٧٨) الإشفاق : الخوف أي من الله تعالى . — منسجم : منسكب .

(١٧٩) عن المغيرة بن شعبة قال : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه ، فقيل له « أتتكلف هـــذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ! » قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ! » .

وقال صاحب البردة رحمه الله : —

رضيةٌ نفسهُ لا تشتكي سأماً   وما مع الحبِّ إنْ أخلصتَ من سأمِ[١٨٠]
وصلِّ ربِّي على آلٍ له نُخَبٍ   جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرمِ[١٨١]
بيضُ الوجوهِ ووجهُ الدهرِ ذو حَلَكٍ   شُمُّ الأنوفِ وأنفُ الحادثاتِ حمِي[١٨٢]
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منك أربعةً   في الصَّحْبِ صُحبتُهم مَرْعيةُ الحُرَمِ[١٨٣]
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم   ما هالَ من جَلَلٍ واشتدَّ من عَمَمِ[١٨٤]
الصابرين ونفسُ الأرضِ واجفةٌ   الضاحكين إلى الأخطارِ والقُحَمِ[١٨٥]
يا ربِّ هبَّتْ شعوبٌ من منيَّتها   واستيقظتْ أممٌ من رقدةِ العدمِ[١٨٦]
سعدٌ ونحسٌ ومُلكٌ أنت مالكُهُ   تُديلُ من نِعَمٍ فيه ومن نِقَمِ[١٨٧]

— طالت له سنةٌ من أحيا الظلام إلى   أن اشتكت قدماه الضرَّ من ورمِ

(١٨٠) رضية : راضية .

(١٨١) النخب : جمع نخبة وهو الرجل المختار .

(١٨٢) الحلك : (محركة) شدة السواد . — الشمم : في الأنف ارتفاع القصبة وحسنها ، وهو هنا كناية عن الحمية وشرف النفس . — وأنف الحادثات حمي : كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر .

(١٨٣) الحُرَم : جمع حرمة وهي الذمة والمهابة وما لا يحل انتهاكه . — والأربعة : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

(١٨٤) هاله الأمر هولاً : أفزعه . — الجلل : هنا الأمر العظيم — العمم : الطويل كربه الشديد مشقته .

(١٨٥) وجف : يجف اضطرب — القحم : الأمور العظام التي لا يركبها كل أحد .

(١٨٦) هبت : انتبهت — شعوب : جمع شعب وهو القبيلة العظيمة ، وقيل الحي العظيم .

(١٨٧) كلام مستأنف بمنزلة التعليل لما سبق ، أي أن ما كان من هبوب تلك —

رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمتهِ   أكرِمْ بوجهك من قاضٍ ومنتقمِ ١٨٨

فالطفْ لأجل رسول العالمين بنا   ولا تزدْ قومَه خسفاً ولا تسمِ ١٨٩

يا ربِّ أحسنتَ بدءَ المسلمين به   فتمِّم الفضلَ وامنحْ حسنَ مختتمِ ١٩٠

= الشعوب ونهوضها بعد طول رقادها إنما كان بأمر الله تعالى وقضائه ، وهو سبحانه المتفرد بالتأثير فيما يتغير على خلقه من عزة وهوادة وارتفاع واتضاع . ﴿ وتلكَ الأيامُ نداولُها بينَ النّاس ﴾ والقدَرُ لكل ما يقع في ملكه من سعادة بعض الشعوب وإقبال الدولة عليهم ، ومنحوسة بعضها وتنكر الأيام لهم . ﴿ قُلِ اللهُمَّ مالكَ المُلكِ تؤتي المُلكَ من تشاءُ وتنزعُ المُلكَ ممن تشاءُ وتُعزُّ من تشاءُ وتُذلُّ من تشاءُ بيدكَ الخيرُ إنكَ على كلِّ شيءٍ قدير ﴾

(١٨٨) تسمية الرأى للقضاء مجاز أى رأيت بقضائك فينا — رأى حكمته : أى حكمة صاحب القضاء — قاض : بالخير — منتقم : من ذوى الشر .

(١٨٩) لا تسم : سام يسوم ، والسوم التكليف وأن تجشم إنساناً مشقة أو سوءاً .

(١٩٠) لا يخفى ما في « حسن مختتم » من حسن الختام .

يقول الضعيف المفتقر إلى عفو ربه خادم العلم سليم بن أبي فراج بن سليم البشري :

هذا ما جرى به القلم شرحاً وبياناً لهـذه القصيدة الحفيلة بالمعاني الكثيرة في الأغراض المتفرقة . ولو أن الكاتب عمد إلى كل بيت ففسر غريبه ، وفصّل مجمله ، وأوضح معناه ، ونزل عند مغازيه ، وعرض على وجوه العربية مفرده ومركبه ، وأرسل الإشارة إلى كل ما وقع له من دقائق البلاغة وفنون البديع ، وطلب القصة التي يومأ إليها فيه ، ووازن بينه وبين ما يجانسه من الشعر ويسايره من الكلام ، وغير ذلك مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب نقده وتفسيره ، لطال القول وتجاوز القصد. ولكنا داورنا بين هذه الأغراض في جملة القصيدة ، وداولناها بين أبياتها ، وربما قلنا في تفسير معنى البيت ، وقصرنا القول في البيت الثاني على بيان الاستعارة ووجه التشبيه ، وتجاوزنا هذا في الثالث إلى سرد القصة وتقرير الواقعة يشار إليها في البيت إيجازاً للكلام ، ولنجعل للناشىء حول أبيات القصيدة فراغاً يجول فيه ذهنه ، ويدور فيه فهمه ، فيقتبس ما غاب عنه على ما تقدم له من التفسير والتأويل ، وينزل حكم الاستعارة في البيت على ما شاكلها في بيت غيره . فإن نكن أصبنا الغرض وأدركنا القصد فيما ذهبنا إليه ، فذلك فضل الله وتسديده ، وإلا فما زال العبد مظنة العجز وموضع القصور .

هذا ولم نقل شيئاً في فاتحة الكتاب تشبثاً بما قاله سيد الكتّاب محمد بك المويلحي.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا السِّفر خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به قارئه والناظر فيه .

اللهم أعلِ أمر هذا الدين ، وأعز الإسلام والمسلمين ، اللهم وأتم من مجدهم ما تهدّم ، وصلْ من حبلهم ما تصرّم ، واهدهم صراطك المستقيم ، بيمن مولانا أمير المؤمنين ومولانا أمير مصر ، نضّر الله بعهدهما عود الدولة ، وأقام بهما عمود الملة .

وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

« سبحان ربّك ربِّ العزّة عما يصفون وسلامٌ على المرسلين . والحمدُ لله ربِّ العالمين » .

تم بحمد الله وتوفيقه

كان الفراغ من طبعه فى العشرين من شهر رمضان الكريم سنة ١٤٠٧ هـ
الموافق السابع عشر من مايو سنة ١٩٨٧ بمطبعة مكتبة الآداب
المطبعة النموذجية لصاحبها «على حسن»
٦ سكة الشابورى بالحلمية الجديدة — ٤٢ ميدان الأوبرا بالقاهرة

رقم الإيداع القانونى بدار الكتب ٤١٠٦ / ١٩٨٧
الترقيم الدولى (× — ٠٣٠ — ٦٦٩ — ٩٧٧)